رَجُل المستجير

مصطفى حنيجل

تويا

رَجُل المستجير

مصطفى حنيجل

تويا

إهداءٌ إلى..
الشَّـقيةِ الفاتنةِ التي أعادتْ لي طفولتي مرةً أخرى..
عُقلةِ الإصبعِ المفعوصةِ (سيلا)، التي أهدتني لقبَ خالو لأول مرةٍ.

(رَجُلُ المُسْتَجِير)

"إثمي مثتجير معاطي الحدق.. بحب ربنا وماما وبابا وعندي تلت ثنين ونث"

- شطووووور يا مُستجير.

قالتها أمي وهي تنظرُ لي بفخرٍ وأنا أردد كالببغاء هذا الكلام ردًّا على سؤال عمتي تفيدة التي تُكرره في كل زيارةٍ وهي تضمني لصدرِها وترفعني في الهواء كأنني قِط مسكينٌ ألقاه القَدرُ بين يديْها فأقسمت ألا تتركهَ إلا وهو منقطع الأنفاس يلعن دنياه .

حاولتُ الانزلاق من بين يديْها فأحكمتْ قبضتَها وهي تُهدهدني وتدفسني في حِجرها، وتقول:

- فين سنانك يا بطة.. أكلتها القطة.. يا خواتي صغنن عين أمه.

ضاقتْ بي كل سبل الهرب منها وتسللتُ إلى آنفي رائحة عَرقها الممتزج بـ"كلونيا خمس خمسات" فاعترض جهازي التنفسي وكدت أفقد الوعي فكممتُ أنفي بيدي، وقلتُ:

- إيه القرف ده.. ريحتك معفنة قوي يا عمتو!

انتفضت وشهقت وألقتني على الأرض قبل أن تتدخل أمي وتخلع "شبشبها الأخضر" وتنهال على لحمي بلسعاتٍ أفقدتني صوابي، وهي تصرخ :

- يا قليل الأدب.. والله لأقول لأبوك لما يصحى.

سقطتُ في بحرٍ من البكاء والنهنهة حتى طفحتْ السوائل من فتحات أنفي، وقلت:

- مش إنتي إمبارح كنتي بتقولي لبابا "أختك تفيدة ريحتها وحشة ومبتستحماش"!!!

تسمَّرت النظراتُ وتوقفت الكلماتُ فشعرت أننا جميعًا في مأزق، ولكني حقا لم أكذب، فقد سمعتُ أمي عندما قالت لأبي بالأمس: "أختك تفيدة ريحتها وحشة ومبتستحماش"، فضحك وقال لها: "الله يرحم أبوكي الجزمجي اللي كان شرابه مقطوع".

اكتسى وجهُ أمي بالغضب وهي تتوعدني وتُقسم بأغلظ الأيمان أن: "ليلتي مش فايتة" فاستيقظ أبي على صراخ أمي وخرج إلينا بملابسه الداخلية، فأوقفته عمتي بخشونةٍ:

- مكانش العشم يا معاطي.. تخلي مراتك تقول عليا كدا!

قذفتها عمتي في وجه أبي وانصرفت، حاول أن يستوقفها فنهرته ومشت، فالتفت إلى أمي وسألها عما جرى.

ألقت بي أمي في اليمِّ وقصَّت له ما حدث، فالتفت إلى شخصي المتواضع وقال:

- هاتيلي الحزام من جوه عشان أربي الكلب الأجرب ده.

تقلصت أمعائي وصارتْ أقصى أحلامي أن أنصهر أو أتحول إلى دخان يختفي في الهواء لأهرب من عقاب أبي الذي انهال على قدمي بالقطعة المعدنية المثبتة في الحزام الجلد، وهو يصرخ في وجهي :

- والله لأقطع جتتك من الضرب يا بهيم.

تكررت لسعاتُ والدي حتى فقدت معناها ولم أعد أشعر بالألم، لكني زدت من بكائي وصراخي حتى لا يزيد في تعذيبي، لكنه اكتفى عندما سيطر عليه التعب

تماما فآلقى بالحزام، وقال لأمي:

- شوفتي تربيتك يا ست هانم.. ابنك طالع بينقل الكلام.

ردت أمي:

- عيل يا معاطى.. بكره يكبر ويفهم.

تكوَّرتُ على نفسي ولملمتُ أطرافي الصغيرة بجوار باب الغرفة؛ لم تخرج مني إلا أنفاسٌ مرتعشةٌ وأنا أترقب أي محاولةٍ إضافيةٍ للفتك بي ولكن أبي انصرف بانتباهه عني، وقال لأمي :

- قبضت النهاردة الجمعية يا ولية.

نهضت أمي كمن لسعتها الكهرباء واقتربت منه بدلالٍ، وقالت:

- مش هتجيب لنا تلاجة بقى يا معاطي، بدل النملية اللي عفنت دي.

تفحرت أخاديد كثيرة للتجاعيد على وجه أبي وقطب جبينه، وقال:

- طب والديون اللي علينا لجوز تفيدة؛ عباس مش هيسكت بعد اللي ابنك عمله.

تثعلبت أمي وقالت بخبثٍ:

- ما أنت هتدخل عليه بالشويتين بتوعك يا معاطي.. هو أنا برضه اللي هقولك يا سيد الرجالة.

وفي لحظاتٍ استطاعت أمي فرض قدراتها الإقناعية وأكملت بثقةٍ بعد أن ازدادت التصاقًا بأبي:

- والمروحة الناشونال يخليك ليا يا أخويا.. والنبي الجو بقى حر قاطع.

انتفخت أوداج أبي ولبس لباس العالم ببواطن الأمور، وقال:

- ما هو كل ده بسبب الله يجازيهم اللي خرموا الأوزون.. يلا منهم لله.

استكانت أمي وصمتت كأنها تذكرت شيئًا ما، وقالت:

- وطبعًا عارف هتعمل إيه مع عباس جوز تفيدة.

نفخ أبي صدره وقال:

- ولا يقدر يعمل معايا حاجة.. هو إنتي متجوزة كاورك يا ولية!

قطع حوارهم صوت الجرس فهرولت أمي تفتح الباب لتجد "عمو عباس" زوج عمتي "تفيدة" الذي اقتحم المكان بدون استئذانٍ وعبس في وجوهنا ثم انفجر في وجه أبي :

- عديت لك كتير يا معاطي.. وخلاص نهايتك جت معايا.

تحوَّل لون وجه أبي إلى الأصفر الكركمي وأصابه داء "التأتأة":

- ف.. ف.. في.. فيييه إيه بس يا عباس؟

- من غير فأفأة يا خويا.. فلوسي تيجي دلوقت عشان يومك يعدِّي.

تجمَّدت ملامح أبي واختفت أمي في لمح البصر فأكمل عمو عباس تهديده:

- هو أنا بكلم واحد أخرس.. الفلوس عشان معوركش يا معاطي.

ارتعش أبي وانكمش، وقال باستكانةٍ:

- عليا الطلاق من مراتي ما معايا حتى أجيب عشا للبيت يا عباس.

لم ينقطع "جعير" عمو عباس الذي وثب فوق صوت أبي المكتوم وتحوَّل الأمرُ من التهديد إلى شروع في دكِّ عظام أبي.

حاولتُ التدخل لإنقاذ أبي المسكين من براثن هذا الخرتيت الجاحد، فقلتُ له:

- يا بابا.. بلاش تجيب لنا التلاجة.. مش عاوزينها خلاث.

التقط عمو عباس الكلام:

- تلاجة إيه اللي هتشتريها يا معاطي؟!

انتشرت قواتُ الرعب على ملامح أبي الذي قال:

- يا عباس ده عيل وبيخرَّف.. هتاخد على كلام عيل!

لم يكن رد عمو عباس مجرد كلماتٍ وإنما سكين حاد لوح به في وجه أبي الذي تحوَّل إلى فأرٍ سقط في مصيدةٍ تحت رحمة قطٍّ مفترسٍ فلاحت في أفق عقلي فكرة التضحية بمكعبات الثلج التي طالما حلمت بصنعها عندما نشتري الثلاجة وهرولت إلى حيث يضع أبي النقود وأحضرت ما وجدته وألقيتهم تحت أقدام عمو عباس بطريقةٍ مسرحيةٍ ليعفو عن أبي، وقلتُ:

- خد يا عمو الفلوث ومش عاوذين المروحة كمان.. بس ثيب بابا.

هز عباس رأسه، وقال لأبي:

- ومروحة كمان يا معاطي.. ده أنا هروحك من الدنيا خالص.

لا أتذكر جيدًا كم جرحًا تركه عباس في وجه أبي في هذا اليوم بعد أن تحولت معالم وجهه إلى شوارع زرقاء وحمراء ولكن ما أتذكره جيدًا حفلات التعذيب التي أقامها أبي على جسدي والتي امتدت لأيامٍ لعنت فيها كل ثلاجات ومراوح الكوكب.

****

استمر أبي في تعذيبي فأيقنت أنني خُلقت في هذه الدنيا لأقوم بدور المضروب بعد أن أطلقتها أمي فصارت لي اسمًا وحالًا.

وتميزت أمي بعقابها "الخرطومي" التي كانت تقوم به أيام الخميس تحديدًا عندما أرفض النوم مبكرًا وأمارس عادتي في الزن لأشاهد برنامج "حواديت القطاقيط " كما تعودت في كل الأيام فلا أحد غير لسعات الخرطوم الأسود الذي أهرب منه بجسدي الضئيل فتنطفئ الأنوار وتخفت الأصوات ويختطفني النوم فألقي بنفسي بين أحضانه.

وإحقاقًا للحق فقد أبدع أبي في ابتكار وسائل تعذيبية متجددة حتى لا أصاب بالملل وأصبحت مع الأيام أميز بين ما يوجع وما يلسع وصرت من قبيلة "بني مضروب" التي حاولت الانسلاخ منها عندما اشتد العود وتقمصت دور الضارب و....

****

- إنتي حمارة وغبية وهموتك من الضرب.

قلتها وأنا أمسك "الخرطوم" الذي تضربني به أمي بعدما تقمصت دور المدرس وأجبرت ابنة الجيران الصغيرة التي جاءت بها أمها إلينا لانشغالها بأمرٍ ما على الجلوس أمامي وتمثيل دور الطالبة .

جاءت أمي من المطبخ على صوت صراخ الرضيعة " حنة" وأنا أستعد للفتك بها جزاء لها على بلادتها بعد كل ما بذلته معها من مجهودٍ لحفظ جدول الضرب فسحبتها من بين يدي وصرخت في وجهي:

- بتهبب إيه يا زفت في سنينك السودا !

قلتُ والبراءة تسيلُ من ملامحي :

- بعلم حنة يا ماما وهي مش بتفهم، فهضربها زي أبلة سميحة ما بتعمل معا نا.

- إنت ملكش دعوة بالبت يا زفت الهباب وأنا هاجي بكرة لأبلة سميحة دي أشوف حكايتها.

قالتها فقذفت بي في بطن الخوف الذي "مصمص" أعصابي وأنا أتخيل لقاءها بأبلة سميحة في الصباح؛ فمن المؤكد أنها ستعرف المُصيبة التي قمتُ بها في المدرسة بالأمس .

كالسلحفاة مرَّت ليلتي وجاء الصباح زحفًا لأجد أمي تقفُ على رأس السرير وهي تشدو بنشيدها اليومي :

- قوم يا آخرة صبري.. ولا يا مستجيير.. هتتأخر على الطابور .

حاولتُ استدعاء كل ما تعلمته من فنون تمثيل المرض ليرق قلب أمي فلم ينفع

ولم يشفع ولم أجد سوى الامتثال للقدر الذي ينبئ بأن هذا اليوم هو آخر أيام حياتي فتحركت كالإنسان الآلي بعدما استعدت أمي لتهيئتي وقالت وهي تحشر قميصي "الكاروهات" بداخل البنطلون:

- ما تتعدل كدا يا ولا.. إنت واكل سد الحنك ع الصبح!

- ماما أنا عاوز جزمة جديدة.

- يعوض عليا عوض الصابرين يا رب.. إنت كل أسبوع عاوز لك جزمة جديدة؛ أنا أول مرة أشوف عيل يمشي في الشارع يشوط الطوب وأكياس الزبالة.

- يا ماما الجزمة اتقطعت لما اتخانقت آخر مرة مع الواد كرمبة.

- أنا هجيلك المدرسة النهاردة أشوف حكايتك.. إنت كل يوم تعملي مصيبة .

قالتها وهي تضع سندوتشات البيض المقلي في الكيس ومعها بعض قطع العجوة الأشبه بقوالب الطوب كمقرر يومي لوجبة الإفطار .

قطعتُ مشواري إلى المدرسة وأنا مثقلٌ بهمٍّ لا أعرف له خلاصًا، فقد ضبطتني أبلة سميحة بالأمس وأنا أكتب لزميلتي سوسن "بحبك" على كراسة الحساب، ولأنني أتنافسُ مع زميلي كرمبة في حب سوسن فكانت معاركنا اليومية تنتهي بخسارتي أمام هذا الكائن الجاموسي .

مرَّت الحصصُ الأولى بطيئةً وجاءت "الفسحة" فأكلت سندوتشات البيض المقلي بعد أن تحولت إلى "بسيسة" وقمتُ بالتحلية بقطع العجوة التي حاولتُ قضمها فلم تستجب ومع المحاولة انتصرت العجوة ونجحت في كسر أحد أسناني لأجد الدم يخرج من فمي .

لمحتُ سوسن تُتابعني من بعيدٍ فتصنعت التحمل والصلابة لأجد معتز كرمبة أمامي يهز بطيخته ويضحك:

- سلامتك يا بيضا.. إنت بتخري دم يا عسولة.. يح يح.

لا أستوعب دائمًا فروق العضلات والدهون بيني وبين كرمبة وكتكملة للروتين اليومي قامت بيننا خناقةٌ انتهت بخسارتي لذراع قميصي الكاروهات، وانتهت الفسحة.

دخلنا الفصل وجاءت حصة أبلة سميحة، تذكرت موعد زيارة أمي فاصفرَّ وجهي وارتعشت أطرافي رغمًا عني فلاحظني كرومبة ولم يدع فرصةً كهذه تمر دون سخريةٍ، فقال:

- مالك يا بيضا بردانة ولا إيه.. أجيب لك شراب كلوت!

قالها وضحك وأضحك كل مَن في الفصل على هيئتي فلم أهتم ولكن ما آلمني حقا أنني رأيتُ سوسن تضحك معهم فازدادت رغبتي في سحق هذا الكرمبة

وإزالته من الوجود للأبد، ولكن تبددت كل خيالاتي وتوقفت تخطيطاتي بدخول أبلة سميحة التي ترتعشُ الأبدان لذكر اسمها الذي ارتبط بـ"المد على الأرجل والمؤخرات" إن لزم الأمر.

بدأت الحصة وبدأ معها توقف كل مؤشرات النبض عندما سمعتُ طرقاتٍ خفيفةً على باب الفصل ورأيتُ خيال ملائكة العذاب والموت يُحلق في فضاء الفصل عندما دخلتْ مَن بالخارج ووجدتها أمي التي استقبلتها أبلة سميحة:

- أيوه يا حاجة.. حضرتك عاوزه مين؟

مدَّت أمي رأسها تتفحص القطع المرصوصة على المقاعد، وقالت:

- أنا والدة الطالب مستجير معاطي الحدق.

حاولتُ بشتى الطرق خلق فجوة غير مرئية لأختفي بداخلها ففشلت، واستسلمت للقدر عندما سمعتُ أبلة سميحة تُنادي على اسمي:

- الطالب مستجير الحدق.. تعالى!

برزتُ من بين الأجساد كالدودة المسكينة لأستقبل أمي بما تبقى من جسدي بعد خناقة كرمبة، فوقفت أمامها شبه كائنٍ حي، فقالت أبلة سميحة:

- زي ما حضرتك شايفة يا مدام.. بذمتك ده منظر طالب!

لم تتعجب أمي من هيئتي، فقد اعتادت على مثل هذه الأمور وانفردت بأبلة سميحة ودار بينهما حوارٌ لم أتبينه ولكني لمحتُ نظرات أمي التي كادت تحرقني، واقتربت فسمعتها تقول لأبلة سميحة:
- العيل بيقلد أي حاجة ودي مشكلة.. إذا كان وهو لسه في تالتة ابتدائي وعامل فيا كده لما يكبر هيعمل إيه!

وقفت بينهما كالفأر الذي وقع في مصيدةٍ تمتلكها مجموعةٌ من هواة سلخ الجلود فتلقفتني أمي وأبلة سميحة في مباراةٍ ظاهرها تقويمي وباطنها تقريعي.

حمدت ربي على نعمته في هذه اللحظة التي قالت لي فيها أبلة سميحة:

- ارجع مكانك يا مُستجير.

ثم أنهت حديثها مع أمي:

- ربنا يهديه يا مدام سعدية.. يا ريت تتابعي معانا دايمًا.. وربنا يوفقهم كلهم.

انتهى اليوم الدراسي وخرجنا إلى الشارع كتلًا مُتلاصقةً بعد يومٍ دراسي امتلأ بالصراخ والكدمات والملابس الممزقة.

انتهى اليوم ولم ينته بالنسبة لمعتز كرمبة الذي وقف في منتصف الشارع وأمام الجمع الغفير من طلبة مدرسة "أبطال الغد الابتدائية المشتركة"، وبأعلى صوتٍ

نادى:

- إنت ياض يا ابن سعدية.

تجمَّدتُ في مكاني عندما سمعتُ هذا الجاموس الذي نطق باسم أمي ساخرًا وهو يهز لحمه المترامي الأطراف؛ بل وقام بتلحينها هو وعصابته من الفصل وصنعوا قطارًا راقصًا في منتصف الشارع، وقالوا:

- سعدية بتاعة الملوخية.. طلعوا عليها الحرامية.. وقالوا لها هاتي فلوسك يا ولية.

لم أتحمل استفزاز كرمبة ولكني أدرك تمامًا أنني إن دخلت هذه المعركة غير المتكافئة سأنتقل سريعًا إلى الدار الآخرة .
لمحتُ سوسن تقف على الرصيف وترى دموعي، فالتقطت بعض الطوب وبهستريا ألقيت قذائفي على كرمبة وعصابته فرشقت إحدى القذائف في زجاج عم مسعد الحلاق .
وفي لحظاتٍ اختفي كرمبة بعد أن قذفني بأحد أكياس القمامة الذي هبط على رأسي فأعماني ووجدتُ نفسي في مواجهةٍ قاسيةٍ مع عم مسعد الذي أسرني وربطني في كرسي صالون الحلاقة وأقسم ألا يُطلق سراحي إلا بعد أن يحضر أبي ويدفع له ثمن الزجاج.

تطوع أولاد الحلال وأحضروا أبي الذي دفع تكاليف الزجاج كاملةً لعم مسعد وحررني من الأسْر فلم تلمس قدمي الأرض بعدما ركل مؤخرتي فتدحرجت في منتصف الشارع، وقال:

- كل يوم مصيبة يا ابن الكلب يا زبالة؛ إنت اللي زيك خسارة فيه العلام والمدارس.

التزمتُ الصمت التام وتركتُ لجسدي حرية الاستمتاع بالسقوط الحر مع كل ركلة من أقدام أبي الحبيب الذي جعل شارع مدرسة "أبطال الغد" يشهد تفاصيل هذا العتاب الأبوي الرقيق الذي استمر طوال الطريق وإلى أن وصلنا إلى المنزل.

لم أكترث بحفلاتِ التعذيب النفسي والبدني التي أقامها لي أبي ولكن لم يغمض لي جفنٌ وأنا أخطط لأنتقم من كرمبة شر انتقام ليعرفَ حقا من هو مُستجير معاطي الحدق.

تراقصت أمامي فكرةٌ كنتُ قد رأيتها في أحد المسلسلات وقد حان وقت الاستعانة بها.. ولنقل على روحك السلام يا كرمبة الكلب.

قضيتُ الليلة أعد الدقائق والثواني حتى جاء الصباحُ فدخلت أمي لتمارس مهامها اليومية في إيقاظي، وجدتني مكتملَ الهندام مُشرق الوجه فقالت:

- سبحانه مُغير الأحوال.. إيه النشاط ده يا خويا.. على الله ربنا يكون هداك.

تممت على محتويات شنطتي المدرسية وخطتي الانتقامية وتسابقت مع الزمن حتى وصلت إلى المدرسة وبدأت في التمهيد الناعم للخطة عندما دخلت الفصل واقتربت من كرمبة وبكل أدبٍ قلتُ:

- معتز..عاوز أقعد جمبك النهاردة.. ممكن؟

تجسَّم الغباء وتجمعت ذراته في أعين كرمبة الذي قال:

- عاوز إيه يا ابن سعدية؟

ابتلعت الإهانة واعتبرتها دعابةً من صديقٍ، وقلتُ:

- يا معتز إحنا أصحاب وإخوات.. وأنا مش زعلان منك يا عم.

قلتها ولم أترك له الفرصة ليرد فجلستُ بجانبه وأخرجت إفطاري الذي سمحت له بأن يقتسمه معي هذه المرة فتناولنا معًا سندوتشات البيض وقطع العجوة بسماحة ورضا وليس عنوة كما كان يحدث من قبل.

مرَّت الحصص الأولى في هدوءٍ حذرٍ شابتْها نظراتُ الاستغراب والترقب من كل الزملاء وحتى الأبلة سميحة التي بدأت حصتها ووجدتْني أجلس بجانب كرمبة فقالت:

- أيوه كدا يا ولاد شاطرين.. لازم تتصالحوا لأن كلكوا إخوات.

ابتسمتُ بودٍّ وكدتُ أحضن كرمبة من فرط المحبة، وجاءت اللحظة التي كنتُ أنتظرها عندما لاحظت انشغال أبلة سميحة بتصحيح بعض الكراسات وقمت باستعارة حافظة نقودها الملقاة أمامها على "الديسك" وفي لحظات كانت الحافظة تنام وتنعم بالدفء بداخل شنطة صديقي العزيز معتز كرمبة.

لا أستطيع وصف سعادتي وأنا أرى كرمبة وهو ملقى على ظهره في أرض الطابور يصل عواؤه للسماء ولسعات عصا المدير ترن على قدميْه بعد أن قام فاعل خير بالوشاية للمدير أنه رآه يسرقُ حافظة نقود أبلة سميحة.

*****

بعدما أقرت أبلة سميحة بأنني ثور لاهٍ في برسيمه وتضامنت معها أمي التي أقنعت أبي بضرورة إلحاقي بمجموعات تقوية نظرًا لبلادتي فصار يومي بعد المدرسة يتلخص في نزولي متخفيًا كالقط الأجرب الهارب من كلاب الشوارع لحضور الدروس الخصوصية حتى لا يراني أحدٌ من جواسيس الفصل وتنتشر فضيحتي مجلجلةً بين الطلبة وأصبح أضحوكة المدرسة.

فالدرسُ الخاص عارٌ يحمله الطالب البليد ولا يتخلص منه إلا بالفناء أو الانتقال إلى المرحلة الإعدادية كما انتقلت واكتشفت أنه ضرورة حتمية للنجاح فصرتُ أكثر بجاحةً وأنا أنتقل بين أوكار الدروس فقط لأضمن درجات أعمال السنة التي يحتكرها مدرسُ كل مادة.

وتطور الأمر وبدأنا في استعارة أسئلة الامتحان من المدرس الذي تعامل بمبدأ "طالما تدفع فحتمًا ستحصل".

وبالفعل قد حصلت وبدأت امتحانات الصف الأول الإعدادي و...

****

"الناجح يرفع إيده هيييه يالالالي"

اليوم ظهرت نتيجةُ الصف الأول الإعدادي وحدثت المعجزة وجاءت الشهادة بيضاء خاليةً من..
"الكحك الأحمر" .

بدأتُ الاحتفال بنجاحي عند باب الشقة فرقصت وتحنجلت وغنيت "يا إخواتي يا أهلي يا جيراني أنا عاوز أخدكو في أحضاني".

فتحت أمي الباب واستقبلتني بزغرودة:

- ألف مبروك يا مُستجير.. ياما إنت كريم يا رب.

ارتميت في حضن أمي وقلبي يتقافز من السعادة، فتدخل أبي:

- يعني هو المحروس جاب الديب من ديله.. أمال لو مكانش ناجح بالغش.

- جرى إيه يا معاطي.. مستكتر عليا أفرح بمُستجيري حبيبي!

- دلعيه يا اختى.. والله ما حدّ هيبوظه غيرك.

وقفتُ في صمتٍ أتابع سيمفونية أبي المحفوظة، فاعتدل وقال لي:

- وإنت يا حيلتها يا طري.. أخدت الأجازة وهاتقعد لي في البيت زي البنات!ّ

- طب هعمل إيه يا بابا؟

- تنزل تشتغل وتجيب مصاريفك.. أنا عاوزك تنشف وتبقى راجل.

للحظات سرقتني خيالاتي عن العمل وداعبت حماستي، فتخيلت نفسي بعد أن أعمل في فترة الإجازة الصيفية وقد أصبحت من ذوي الأموال والكروش الممتلئة.

- إنت متنح كدا ليه يا حيلتها؟

- .....ها.. لا.. مفيش يا بابا.

- أنا كلمتلك المعلم جمال زعبور صاحب ورشة النجارة.. أهو تتعلم صنعة بدل ما إنت حمار كدا.

- حمار إيه.. مين ده اللي حمار!

- بتقول حاجة يالا؟

- لا يا بابا.. بقولك حاضر هروح لزعبور أشتغل عنده نجار.

قلتها وعدت إلى خيالاتي، أحلم بمستقبلي القريب وقد صرتُ من أصحاب الأموال أرتدي الماركات العالمية بدلا من "الشورت أبو أستك" الذي حفر لنفسه علاماتٍ في جسدي بحكم العِشرة الطويلة.

تلقفتني الأحلامُ الوردية طوال تلك الليلة حتى طل الصباح برأسه ومعه أبي الذي قام بدور المنبه عندما وجدته يقف على رأس السرير:

- قوم يالا عشان متتأخرش ع الورشة.

رتبت هندامي والحماسة تغمرني، ولحقتني أمي عند الباب:

- خد يا حبيبي العشرة جنيه دي اشتريلك سندوتش لما تجوع وحاجة ساقعة

وخلي الباقي معاك.. ربنا يعينك يا ضنايا.

قاطعها أبي:

- جرى إيه يا ولية.. هو رايح يهد الجبل!

انطلقتُ إلى ورشة المعلم جمال زعبور التي تبعد عن بيتنا بأربعة شوارع؛ دخلتُ فوجدت رجلًا أربعينيا حاد الملامح طويلا كالنخلة تبزر عظام وجهه كمريض السُّل؛ ألقيت التحية فلم يرد ووجَّه حديثه إلى آخر يعمل على ماكينة شق الخشب:

- استلم الحلاوة ده يا طربوش وشغله تحت إيدك!

استقبلني عم طربوش بابتسامةٍ صفراء:

- اسمك إيه يا حلاوة?

اقتربت منه وببراءةٍ قلتُ:

- مُستجير الحدق.

- طب تعالى يا حِدق بقى رص لي الخشب ده هنا واكنس النشارة دي وعبيها في شيكارة، وبعدين تنقل البنك ده من مكانه وتنضف تحته ولما تخلص تعالى أقولك تعمل إيه تاني.

- هو لسه فيه تاني؟!

قلتها في سري وأنا أنظر لكم القذارة والعشوائية وبواقي الطعام والأكياس الملقاة في أركان الورشة، وقلتُ لنفسي:

- إنتوا مش عاوزين حد يشتغل.. ده إنتوا عاوزين خدامة يا ولاد الوارمة.

وقبل أن أبدأ أول مهامي في تنظيف هذه الخرابة تعثرت في علبة غراء فارغة تُغطيها نشارة الخشب ملقاة بجانب البنك الخشبي.. انزلقت قدمي فتعلقت بلوح خشبي رقيق يستند على الحائط.. وفي أقل من ثانية وجدتني أسبح في

بحرٍ من الخشب بعد أن سقطت كومة الخشب المرصوصة بعشوائيةٍ خلف هذا اللوح فانكفأ طربوش على قفاه من الضحك وسقط في دوامة من "السخسخة" ولم يُحاول إنقاذي.

جاء المعلم جمال على صوت الارتطام وجنَّ جنونه عندما رآني تحت هذه الأنقاض الخشبية..
فقال:
- إنت شكلك كدا هتقرفني ووش خسارة ع الصبح .

قلتُ وأنا أمنع دموعي:

- والله ما أخدت بالي يا معلم.

امتد في حيوانيته، وقال:

- إبقى خده المرة الجاية يا حلاوة.. دي فلوس ناس.. وإلا تورينا عرض قفاك!

قالها و"انجعص" على كرسيه الخاص؛ التقم مبسم الشيشة وانشغل عني بدس نظراته في تفاصيل كل أنثى تمر أمامه، فقمتُ ونظفتُ ملابسي وربطت ركبتي المجروحة بقطعةٍ من الشاش الموجود في صيدلية الورشة الصغيرة.
لم تمر دقيقة وانتشر في مُحيطنا الجوي عطرٌ أنثوي نفاذ سال له لعابُ طربوش وزاغ بنظراته قليلا حيث يقف المعلم زعبور فنظرت بدوري لأجد سيدةً ثلاثينيةً تكحلت فصنعت من عينيْها لوحة ثرية وتغلفت بعباءة سمراء أبرزت فواكه شهية.

بصوته الأجش نطق باسمي فتكهربت أعصابي وقلتُ:

- نعم يا معلم.

- هتطلع توصل الست بتاعتي بالشنط دي واللي تقولك عليه اعمله.

- حاضر يا معلم.

سارت السيدة تسبقني بخطوتين وخلفها سرتُ وأنا أحمل أكياس الخضار والفواكه والحلوى والدجاج ليطفحها هذا الخروفُ ولم نبتعد كثيرًا عن الورشة؛ فالبيتُ في نفس الشارع، صعدتْ فصعدتُ خلفها لتدخل شقتها في الدور

الثالث، وقالت:

- بص يا شاطر.. هتمسك المقشة دي وتكنس السلم وتاخد كيس الزبالة في إيدك وإنت نازل وبعد العصر تيجي تاخد الغدا للمعلم جمال.

لم أجد في مفرداتي ما يُناسب كرد فعل لما يحدث معي فاكتفيت بالإيماء وأنا أتذكر كم مرة رفضت أن أشتري لأمي علبة كبريت!

أنهيتُ مهامي في منزل زعبور وأصبح السلم لامعًا مضيئًا والبيت خاليًا من القمامة.. وعدتُ إلى الورشة فوجدتُ المعلم في انتظاري:

- كل ده تأخير ياض!

- والله يا معلم غصب عني.

- أنا مبحبش التنطيط الكتير، وإيه الشورت اللي إنت لابسه ده.. إحنا هنا مش في حضانة.. الواد سيد اللي جوه ده ممكن ياكلك.

أومأتُ بصمتٍ، فأكمل زعبور كلامه:

- خد اشتريلي باكو معسل وهات لي شاي م القهوة ومتتأخرش.

في لمح البصر أحضرتُ طلبات المعلم تجنبًا لمخلفات لسانه الشتائمية التي لا تختلفُ كثيرًا عن مخلفات الصرف الصحي وعدتُ إلى الورشة لأكمل مهامي التي كلفني بها سيد طربوش الذي قال:
- تعالى يا مُستجير.

- أيوه يا عم سيد؟

قربني منه وقال بصوتٍ خفيضٍ كأنه يتحسس الكلمات:

- شفيقة كانت لابسة إيه النهاردة في البيت؟

لم أفهم ما يقصده، فقلتُ:

- شفيقة مين يا عم سيد؟

دارت عيناه دوراتٍ كاملةً مرعوبةً وأطبق بيده على فمي، وقال:

- الله يخرب بيتك.. هتفضحنا ياض!

قالها ورفع يده، وأكمل:

- شفيقة ياض مرات المعلم.

تلاءمت، وقلتُ:

- معرفش والله يا عم سيد.. مخدتش بالي.

أدرك طربوش أن الكلام معي يسير في طريقٍ مسدودٍ "فطرقعت" يده على مؤخرة رأسي وفي هذه اللحظة انقطع التيار الكهربي فتحولت الورشة إلى قطعةٍ سوداء، فقال:

- النور اتقطع والمكن وقف يا حدق.. هنعمل إيه؟

- والله منا عارف يا عم سيد!

قلتها فجذبني إلى الخارج وقال بصوتٍ غير مريحٍ بالمرة:

- روح لعم جبر العطار اللي في آخر الشارع واشتري لنا علبة كهربا ناشفة.

ولأن الإنسان لا يُولد عالمًا فقد تحملت رد فعل عم جبر عندما جئته وبمنتهى التلقائية قلتُ:

- والنبي يا عم عاوز علبة كهربا ناشفة.

سمعها عم جبر فأخرج كل تراث السبِّ مع صوتٍ اتحد فيه الأنف مع الحلق شق سكون المنطقة فضحك كل كائنٍ في الشارع على هيئتي وأنا أجري كالصرصار الذي خرج من بلاعةٍ مكشوفةٍ.

عُدت إلى طربوش الذي افتعل الغضب عندما رآني:

- فين علبة الكهربا ياض!

فكَّرتُ للحظة ووجدتني أقول:

- عم جبر بيقولك.. عند أمك!

سمعها طربوش ولم ينطق فانسحبتُ وأنا ألعن الدنيا ومن فيها وقضيتُ اليوم في مشاوير لا تنتهي حتى عُدت إلى البيت في العاشرة ليلا أزحف على السلالم فوجدتُ أمي في انتظاري:

- يا حبيبي يا ابني.. إيه اللي عورك كدا؟

قاطعها أبي:

- اسكتي يا ولية خليه ينشف ويبقى راجل.

قالها أبي واستدار وقال لي:

- ادخل استحمي وادعك القشف اللي على رجليك ده عشان تنام.

دخلتُ إلى الحمام ونظرتُ إلى ساقي وقدمي فأشفقت عليَّ أمي عندما رأتني؛ فطبقة العفن التي احتلت قدمي كأنها معتقة منذ ألف عام.

حاولتُ بكل الطرق إزالتها فأبت أن تنجلي إلا بمسحوق الغسيل الذي تستخدمه أمي لتنظيف أرضية الحمام.

مرت أيامُ الأسبوع متشابهةً.. في الصباح تنظيف الورشة وجلب الطلبات وتوصيل الست شفيقة وكنس السلالم ورمي القمامة وتحمُّل سخافات المعلم زعبور وطربوش إلى أن جاء يوم الخميس.. "يوم القبض".

قلتها لنفسي وأنا أتوقع المرتب الذي حدده لي المعلم زعبور.. من المؤكد ألا تقل يوميتي عن عشرة جنيهات في ستة أيام.. إذن سأحصل على ستين جنيهًا عدًّا

ونقدًا.

وجاءت اللحظة التي طالما حلمت بها.. الأن سأحصل على أول راتب في حياتي ونتاج العَرق والدم والدموع والتنظيف وكنس السلالم.. وهأنذا أنتظر أمام باب الورشة أن ينادي المعلم زعبور وها هو بالفعل ينادي:

- ولا يا مستجير!

- أيوه يا معلم.. أؤمرني!

- خد يا ابني أجرتك أهي.

تلونت ملامحي بالأحمر وتفككت مفاصلي عندما أبصرتُ تلك الورقة التي نقدني إياها، فتجاهل ما رأى مني وقال:

- ورقة جديدة بعشرة من اللي بتدبح العصفور.

لا أدري بالفعل.. هل تدور بي أرضُ الورشة أم أنا الذي أدور حول نفسي؛ حاولتُ جاهدًا التقاط أنفاسي والتفوُّه بأي كلمةٍ، ولكن صدمة زعبور أفقدتني النطق وقال:

- يلا روَّح ويوم السبت تكون هنا م النجمة.

خرجتُ من الورشة وأنا على وشك البكاء فسمعتُ طربوش يُنادي في منتصف الشارع وهو يضحك:

- معاك فكة مية جنيه يا مُستجير؟

وصلتني سخريته حارقةً فتقافزت أمام عيني كل شياطين الأرض وقلت لنفسي "عشرة جنيه في الأسبوع يا حرامي ده الصابون اللي استحميت به طول الأسبوع بعشرين جنيه".

عُدت إلى البيت ولم أتفوه بكلمةٍ وقد تجمعت في رأسي كل النوايا الخبيثة لأخذ

حقي من هذا الزعبور وشفيقة ومعهما طربوش.

مرَّ يوم الجمعة ثقيلا لا تكاد الثواني تتحرك ولم يجرؤ النوم على الاقتراب طيلة هذه الليلة إلى أن جاء يوم السبت فذهبت إلى الورشة مبكرًا وأنا أنتوي الثأر ولا شيء غيره.

وكما يقولون إن ما تفكر به يأتي إليك على طبقٍ من ذهب.. ففي الميعاد اليومي ذهبتُ لأوصل زوجة المعلم زعبور بأكياس الخضار والفاكهة وبعد أن كنست السلالم سمعتُ السيدة تنادي من أعلى:

- ولا يا مستجيييير!

- أيوه يا حجة.

- روح نادي المعلم عشان يغير لي اللمبة أحسن اتحرقت ومش هعرف أقعد كدا.

لمعت في عقلي فكرة شيطانية وقلتُ لها:

- المعلم مش في الورشة وأنا مبعرفش أركبها.. أنادي لك عم سيد يركبهالك؟

ترددت السيدة، وقالت بعد تفكير:

- نادي عليه بسرعة.

جريت إلى الورشة واقتربت من طربوش وقلتُ بابتسامةٍ صفراء تشبهه:

- الست مرات الحاج عاوزاك يا عم سيد.

لم يُصدق ما قلتُ، فأقسمت له:

- والله قالت لي روح نادي على عمك السيد عاوزاه في موضوع.

لم يصبر طربوش وانطلق جريًا إلى منزل زعبور الذي جاء بعد دقائق ودخل دون إلقاء التحية، وقال لي:
- أمال فين الحمار اللي هنا؟

- مين يا معلم؟!

- سي سيد طربوش يا خويا.

- عم السيد عندك يا معلم.

- عندي فين ياض؟

- عندك في البيت.. ما هو كل لما إنت بتمشي بلاقيه بيروح عند الحجة في البيت معرفش ليه!

سمعها زعبور والتقط "قمطة حديدية" وجرى كالمجنون إلى البيت وتبعتُه أنا.

وقفتُ تحت البيت وأنا أستمتعُ بصيحات طربوش وشفيقة وضحكتُ وأنا أدندن بصوتٍ مسموعٍ:
"واتدحرج واجري يا رمان.. وتعالى على حجري يا رمان".. ومشيت بغير رجعة.

*****

وتناسبت عدد الشعيرات التي نبتت تحت أنفي طرديا مع الجنيهات التي حصدتها من أعمالي الصيفية التي تنوعت ما بين النجارة والحدادة والجزارة وانتهت بمصائب تقشعر لها الأبدان حتى جاءت آخر إجازة صيفية في الصف الثالث الإعدادي وألقى بي أبي عند رجب الحانوتي وصارت وظيفتي "مساعد حانوتي ومقرئ تحت التمرين أمام المقابر".

وفي هذه الوظيفة ذقت ما لذ وطاب من الكعك و"القرص" والفواكه واقتربت من تكوين ثروة نقدية مما كان يجود به أهل كل متوفى بعدما أتقنت فنون المسكنة.

ولم تدم رحلة كفاحي طويلا عندما طل شبح الثانوية العامة برأسه واختطفني من مشاريعي الكبرى في تطوير عالم الموتى وقد كان....

****

"ثانوية عامة والعيشة مُرة"

هكذا كتبتُ على باب غرفتي لكل المقيمين والعابرين والزائرين الخفيف منهم والثقيل استجداء لكلمةٍ طيبةٍ تشد من أزري فلم يحرمني أحدٌ من القول المأثور "إبقى قابلني لو فلحت"، ولكن والحق يُقال فقد تميز أبي عن الجميع، واحتكر لنفسه جملته الأثيرة:

"إبقى تعالى...(اعتبروها تبول)...على قبري لو فلحت".

حتى حجرتي ضاقت بي ولفظتني إلى الصالة للقاء أبي دون أن تؤمنني بالاستعدادات النفسية والتحصينات الجسدية للأعضاء الحيوية قبل دخولي المعركة الشهرية الحصول على مصروفات الدروس الخصوصية.

اقتربت بهدوء لأتبين الظروف النفسية الآنية للوالد فوجدته يقرأ جريدته الصباحية فتنحنحت وقلتُ:

- صباح الفل يا حاج معاطي يا حدق يا عسل إنت.

لم يرد وأغلب الظن أنه اعتبرني رياحًا عابرة، فاقتربت بحذرٍ وقلتُ:

- باباااا.. النهاردة أخر الشهر.

رفع عينيه عن الجريدة وتأملني بنظراتٍ طوليةٍ مشمئزةٍ أشعرتني أنني متسولٌ لقيط جئته من حيث لا يدري وقال:

- والله إنت خسارة فيك اللقمة يا شيخ.. بذمتك ده منظر بني آدم !

- يا بابا مال فلوس الدرس ومال منظري!

- ما هو أنا الجاموسة اللي بتحلبوها تنزل لكو فلوس .

قالها وانتقل إلى مستوى أخر في المعركة عندما "كبش" شعري وشده لأعلى وهو يردد:

- بفروة الخروف دي وشنبك اللي شبه رباط الجزمة ده وعاوز تفلح، عندك ابن عمك ممدوح واد جدع وشاطر ومفرح أبوه وأمه.

تأففت وأنا أسمع هذه النغمة من أبي للمرة الألف في كل نقاش فلا يكف عن مقارنتي بممدوح الذي لا يعرف حقيقته أحد إلا العبد الفقير إلى الله، فهو من النوع الذي يُجيد تمثيل فنون الأدب والوداعة والطاعة والحكمة أمام الأهل فتشعر أنه نسمة تسير على الأرض.

ممدوح توءمي الذي "زلطته" زوجة عمي في نفس لحظة ولادتي ليُبتلى الكوكب بالمزيد من العاهات التي بالتأكيد كان ممدوح على رأس قائمتها بجسده شديد النحولة وعينيْه الغائرتيْن وصلعته المثيرة كأنه رجلٌ أربعيني أثقلته تربية عشرة أبناء مما جعلني أطلق عليه اسمًا ارتبط به منذ الطفولة وهو "زعزوع الأقرع".

تذكرتُ آخر حادث وقع لـ"زعزوع" وتكسرت فيه عظامه عندما قمتُ بعملٍ تطوعي خيري واصطحبتُ أحد أصدقائنا في رحلةٍ قصيرةٍ إلى حديقة العشاق بعدما أخبرته أن زعزوع يُواعد أخته هنا في هذا الميعاد، وعندما وصلنا لم نجد

"زعزوع الأقرع" بعدما تحول إلى "زعزوع الرومانسي" والذي بكل تأكيد تحول بعد لحظاتٍ إلى "بقايا زعزوعية" عندما سكن قميصًا من الجبس لمدة ستة أشهر.

وكلما استدعيتُ بذاكرتي مشهد زعزوع وهو يتدحرج على الأرض ويتكور وتتبعثر كرامته أسقط في بحرٍ من الضحك الذي انتشلني منه أبي :

- بتضحك على إيه يا هايف.. أنا مش بكلمك!

- بابا.. أنا عاوز موبايل بكاميرا من اللي طالع جديد.

- موبايل بكاميرا لييييييه.. طب ممدوح أبوه جاب له الموبايل ده لما العربية خبطته.. إنت هجيبهولك ليه؟

- عربية إيه يا بابا اللي خبطته!

- العربية اللي خبطته وهو خارج من صلاة العصر وبيعدي الشارع من ست شهور.

صدمني بها أبي وعرفتُ أن زعزوع استغل إصابات علقة الحديقة لصالحه أمام أهله وخرج منها بموبايل بكاميرا فقلتُ:

- يا ابن ال%*$%&* يا زعزووووووع.

- بتقول إيه يا لا؟!

- مفيش.. مفيش يا بابا.. إيدك بقى على سبعين جنيه عشان شهرية درس الفرنساوى.

- يا أخي يلعن أبو الإنجليزي على الفرنساوي على التعليم كله.

قالها ونقدني ما طلبت فانسحبتُ في هدوءٍ بعد أن حمدت الله أنني خرجت من هذه المعركة بدون خسائر مادية وعدتُ إلى غرفتي فتأنقت وثبت شعري المنفوش بملء كفي من "الجِل" وانطلقتُ وفي الطريق قابلتُ "شلة المقاطيع" وهم ثلاثة من زملاء الدرس .

تبادلنا السلام والتحية الحارة المُطعمة ببعض السباب والألفاظ البذيئة، وقال خليل :

- على فين الرحال يا ميسو؟

- درس الفرنساوي يا جدعان ده حالف ما هيدخل حد الحصة الجاية لو مدفعناش.. قاطعني مرسي:

- درس إيه.. المسيو النهاردة أجازة إحنا كنا هناك دلوقت.

- طب خلاص هروح أنا بقى.

تدخل ثالثهم، وهو يشتهر بيننا باسم "العِرسة"، وقال :

- تروح مين يا ميسو!! .. تعالى يا عم نروح نعمل قعدة حلوة ونتبسط ونعلي الدمااااغ.

قالها ولمح التردد يُحلق فوق رأسي، فنظر إلى مرسي وخليل وقال :

- يا عم إنت تيجي معانا وتجيب الفلوس اللي معاك نطيرها ونعيش وبكره إحنا ندفعلك معانا فلوس الدرس يا سطى.. خليك جدع بقى .

لم يترك لي "العرسة" فرصة للرفض ووجدتُ نفسي أمشي معهم حتى عرجوا إلى بعض الشوارع الجانبية التي لا يزيد عرضها على مترٍ واحدٍ، ليفاجئني صوت خليل الذي صاح :

- هزها بشويش بشويش.. خلي الشعب يعيش.

بفطنتي أدركتُ أن هذه الجملة هي كلمة سر متفق عليها عندما برز لنا من أحد البنايات القديمة كائنٌ له ملامح إنسان؛ خرجت منه حشرجةٌ تُشبه الصوت البشري وقال:

- الحلوين طالبين إيه؟

رد خليل:

- قعدة صفا يا مكيفة.

فقال الكائن الشبه بشري:

- فلوسك يا فرفور.

مدَّ خليل يده في جيبي وأخرج النقود ففتح لنا الرجل الباب وصعدنا للدور العلوي لأجد البعض يجلسون في جماعاتٍ وكأنها حلقات علم وتدور عليهم "أحجار الجوزة" كالساقية الدوارة التي لا تنقطع .

جلسنا وجاء الصبي بالجوزة وهيكل خشبي به عشرون حجر معمرة بالبانجو فصفعه "العرسة" على قفاه وقال :
- البانجو ده كِيف الحمير تروح تديه لأمك.. عاوزين بُني ياض .

لم يرد الصبي وغاب لدقائق فقلتُ لهم :

- يا جدعان أنا مش هشرب.. أنا هقعد معاكم بس .

قرقعت الضحكات الساخرة وتطوع "العرسة" وقال :

- يا ميسو متبقاش عيل.. هو يوم خلينا نتبسط .

حضر الصبي ومعه بعض لفائف الحشيش المكسوة بورق البفرة وغرقنا في سحابة الدخان الذي نفذ إلى مراكز الضحك في المخ وفتح محابسها لينساب الضحك بلا مبررٍ .

فقد عطس العرسة فانفجرنا من الضحك لنجد خليل قد قام وأحضر كرسي وبدأ يدق عليه لحن أغنية، وجذبني مرسي من يدي لنرقص على أغنية "هزها بشويش بشويش.. خلي الشعب يعيش " .

اندمجت في دور الراقصة بعدما خلع العرسة قميصه وقام بربطه حول خصري وجلس عاري النصف العلوي .

أنهكني الرقص فسقطت على الكرسي لأجد "خليل" يُحاول إشعال أحد أعواد الكبريت ليفتتح سيجارة حشيش جديدة، لكن عود الكبريت لا يشتعل فقلتُ له :

- ارميه يا عم وولع غيره.. تلاقيه بايظ!

فرد خليل وهو يكرر المحاولة :

- بايظ مين يا عم.. أنا لسه مولعه من شوية .

قالها وصمتنا لثوانٍ لتعلو ضحكاتنا بعدها ونحن نستعد للخروج من هذه الصومعة القطار وانطلق كل منا إلى منزله على وعدٍ بلقاء في اليوم التالي .

وفي طريقي إلى منزلي قابلتُ زعزوع الذي جاءته الفرصة على طبقٍ من ألماظ، فسحبني إلى مدخل المنزل بعدما أدرك أنني في عالمٍ آخر وقال :

- نهارنا شكله فل يا مستجير بيه.. مساء الزفت على دماغك .

نظرتُ إليه للحظاتٍ وأنا في عالم آخر وقلتُ :

- والكتكوت جوه البيضا.. والبيضا جوه الفرخة.. والفرخة عاوزه قمحة .

ولحسن الحظ تصادف صعودُ أحد الجيران الذي خلصني من قبضة زعزوع وصعدت إلى الشقة لأجد الجميع قد أكلوا من الأرز واللبن ما يكفي لسنة قادمة من النوم

فلم يشعر بي أحد .

مرَّت الليلة كما مرَّت وفي اليوم التالي خرجتُ لأقابل شلة الفساد لتنفيذ الاتفاق المبرم بيننا ولكني وجدتُ في انتظاري ما قد يتسبب في إيقافي نهائيًّا من اللعب في صفوف نادي الأحياء على الأرض.

وجدتُ عشرات الزملاء يتجمعون حول العرسة وبينهم زعزوع ينظرون لي ويضحكون فلم أهتم وانتظرت ابتعاد زعزوع عنهم حتى أقترب وأطالبهم بتسديد شهرية الدرس وبالفعل بعد لحظاتٍ اختفى زعزوع فتقدمت وقلتُ للعرسة:

- يلا يا عرسة عشان تحاسب لي على الدرس!

ضحك العرسة ضحكة حشاشين وقال:

- أمك في العشة ولا طارت ياض!

سمعتها ففارت الدماء في عروقي وقامت بيننا خناقةٌ انتهت قبل أن تبدأ عندما سمعتُ أحدهم يقول:

- بس ممدوح ابن عمك ده بيعزك قوي يا مستجير.

سمعتُ اسم ممدوح فأيقنت أن هناك مصيبةً في الطريق، وفي الغالب تأكدت من وصولها عندما سمعتُ رنين هاتفي وكان اسم المتصل "صاحب البيت معاطي الحدق":

- ألو.. أيوه يا بابا.

- قدامك عشر دقايق وتكون قدامي.

قالها وأنهى المكالمة فتأكدت أنني هالكٌ لا محالة، ولكن لا أدري ما السبب .

دفع التوتر ذاكرتي فدارت أمام عيني كل مصيبة قمت بها في حياتي، وقبل انتهاء العشر دقائق كنتُ أنتصبُ أمام أبي فوجدت زعزوع معه، وبدأ أبي كلامه بمنتهى الهدوء :

- أخبار درس الفرنساوي إيه يا مستجير؟

قلتُ وأنا أبتلع لعابي :

- تمام يا بابا.

- يعني دفعت فلوس الدرس وحضرت إمبارح؟

- أيوه طبعًا يا بابا.

لم يترك لي الفرصة لاختلاق كذباتٍ أخرى ودسَّ في يدي تليفون زعزوع وقام بتشغيل فيديو وهو يقول :

- طب قولي رأيك في الدرس ده كده!

لم أصدق ما رأيت؛ فقد قام الأبالسة بتصويري وأنا أرقص أثناء جلسة الحشيش ويلتف حول بطني قميص العرسة.

فاجأني أبي بضربةٍ عنيفةٍ وهو يُنادي على زعزوع الذي تمدد على كنبة الصالون يشرب "البيبسي" ليساعده في تقييدي بعد أن أقسم أن يربطني في حبلٍ معلقٍ بالسقف.

حاولتُ "التملص" فسقط الموبايل من يدي وصوت الفيديو يخترق طبلة أذني "هزها بشويش بشويش.. خلي الشعب يعيش".

****

ولأنني طيب القلب؛ نقي السريرة ؛ فقد أنقذتني العناية الإلهية من عملية التصفية الجسدية التي انتوى أبي القيام بها معي لتبقى عمليات التصفية المعنوية التي امتدت معي وأصبحت رفيقة الدرب حتى بعد حصولي على شهادة الثانوية العامة والتحاقي بكلية الإعلام.

أتقن أبي مقولات جديدة تبدأ جميعها بنفس النغمة "أنا لما كنت في سنك عملت كذا وكذا"، وقد احترف أبي استعراض بطولاته وأنه كان مرشحًا لجائزة نوبل في تربية الكلاب وأنني بالطبع خير دليل على احترافه تربية الكلاب!

أما عن هرموناتي التي تفاعلت وطفحت على تكويني الجسماني والتي بالطبع لم يدعها أبي وشأنها وكأنني الوحيد على سطح هذا الكوكب الذي دبت فيه الرجولة فصرت في نظر أبي سفير إبليس في الأرض لمجرد أنه لمحني أتأمل منحنيات ابنة الجيران و...

****

بعد شهور من التوسلات العميقة وتقديم القرابين وفروض الولاء والطاعة قرر

السيد الوالد.. رئيس مجلس إدارة المنزل الاشتراك في وصلة الدش التي انتشرت منذ فترةٍ طويلةٍ وتحاكى بها كل أبناء الجيران؛ وأصدر تعليماته فيما يخص هذا الوافد الجديد إلى منزلنا حتى يتسنى لنا التعامل بحنكةٍ ولضمان الاستخدام الأمثل لهذا الوباء كما قال.

وبعد مداولاتٍ شمل القرار تغيير مكان جهاز التلفزيون وأمر بوضعه في منتصف الصالة لنتجمع معًا وننهل من متعة مشاهدة القنوات الجديدة فقام أبي باحتكار "الريموت" واستقر على "قناة الجزيرة الإخبارية".

لمح تململًا من جابني فقال:

- مش عاجبك ولا إيه يا مستجير بيه؟

- لا طبعًا..عاجبني يا سيد الناس.

ضيق عينيْه وهزَّ رأسه وقال:

- ولا إنت عاوز الوصلة دي عشان قلة الأدب والمسخرة!

تصنَّعت بالبراءة وقلتُ:

- أنا.. أنا يا بابا.. بقى ابنك مستجير الطاهر التقي بتاع الكلام ده!

قلتُها فضحكتْ أمي وهرش أبي في أنفه العتيق وقال:

- بركاتك يا شيخ مستجير.. حوش ياض الزبيبة اللي هتبظ من دماغك.

وقبل أن ينطق لساني أتحفني أبي بباقي جملته المحفوظة:

- وبعدين وصلة إيه وزفت إيه على دماغك.. مش البيه عنده مذاكرة وجامعة ولا دي إشاعات!

حاولتُ امتصاص ثورته، وقلتُ:

- يا بابا إحنا لسه في أول السنة.. يعني مفيش حاجة نذاكرها.

سمعها فألقاني في أعمق مأزق عندما قال ساخرًا:

- طب حول لنا بقى على فيلم فيه رقاصة ولا حاجة.

قالها وانتهى الكلام وتناولنا عشاءنا ونام الجميع إلا أنا؛ تحايلت على النوم فتدلل ورفض المجيء فتشاورت تلافيف مخي فيما بينها وتوصلت إلى فكرة رائعة وقلتُ

لنفسي "طب منا أقوم أتفرج شوية على القنوات الجديدة براحتي".

أطفأتُ جميع الأنوار وأمسكت بـ"الريموت" وتجولت بين القنوات ما بين الأفلام المحلية وبرامج المسابقات والأغاني.. وأخيرًا قناة متخصصة في الأفلام الأجنبي التي أعشقها فوقع اختياري عليها وتذكرت طفولتي التي عشتها محشورًا بين برامج القناة الأولى وفيلم السهرة اليتيم.

اندمجتُ مع أحداث الفيلم وانصهرت حواسي تمامًا عندما ازدادت سخونة المشاهد حتى توقفت أذني وارتفعت حرارتها لتفاجئني صفعة مباغتة رنت على "صفحة قفايا العريضة" كهربت أعصابي وطقطقت أسناني بعدما أضيئت الأنوار فجأة و...

- إنت بتهبب إيه؟

أصابتني المفاجأة بالخرس فحاولتُ تغيير القناة ولكن "الريموت" الحقير رفض تنفيذ الأمر وكأن الفيلم قد أعجبه بعد أن تحول الوضع الساخن بين البطل والبطلة إلى حالة الغليان فترددت نظراتي بين الشاشة وبين أبي الذي قال بهدوءٍ غريبٍ:

- أفهم بقى سيادتك بتتفرج على إيه؟

- يا بابا..ده.. ده.. ده والله.. ده فيلم.

- فيلم إيه يا ابن أمك.. أنا قلت من الأول إنك وسخ.

قالها وشد أسلاك الوصلة فسقط التليفزيون على الأرض؛ لم يقبل الفيلم بهذه الإهانة فازداد حماس البطل والبطلة في الفعل ورد الفعل فقذف الشاشة بمطفأة السجائر، ثم التفت لي وقال:

- غور اتخمد دلوقت وحسابنا بكره لما يطلع لك نهار.

انجلى سواد هذه الليلة وخرجت قبل ميعاد استيقاظ أبي لأتجنب اللقاء الصباحي وتوابعه بعد هذه الليلة الثقافية العامرة.

اتجهتُ إلى الكلية سيرًا على الأقدام لقتل الوقت واتصلت بصديقي شوقي المُلقب بـ "شوقي كباريه" وهو الشخص الذي لا ينقطع لسانه عن السباب ولا يمل أبدًا من معاكسة أي كائن مؤنث حتى لو كانت "كنكة بن" مارة من أمامنا.

حاولتُ الاتصال به مرات ومرات فلم يرد وبعد دقائق جاءني اتصالٌ منه:
- إنت فين يا عم؟

- ميسو حبيب قلبى.. داخل عليك أهه يا عشق.

- داخل عليا فين ياض.. ما تلم نفسك!

- عيب عليك يا معلم.. خمسة بس وهكون قدامك.

- متتأخرش يا اسطى.
- يا عم أتأخر إزاى.. ده أنا جاي مخصوص عشان الوز الجديد بتاع دفعة أولى ولازم نستقبلهم.

- ماشي يا بتاع الوز.

أغلقت الخط وانتظرت صديقي الذي جاء ومعه الذنوب كطعامٍ لإفطاره؛ ولكرم أخلاقه قرر عزومتي على بعض الذنوب فقال:

- شايف ياض الحتة اللي جاية دى.. والنبي حتة جبنة فلمنك يا ناس.

ارتبكتُ وقلتُ:

- يا عم إنت محدش بيعرف يقلدك.

ضحك شوقي ورجع بظهره وهو يهز رأسه متصنعًا الحكمة:

- بص يا مستجير يا ابنى.. أنا وبلا فخر أقدر أوقع أي مزة بغمزة واحدة.

قالها وهو يتابع سربًا من الجميلات فاقترب من إحداهن وقال:

- أحلى واحدة فيكم اللي لابسة جزمة حمرا.. روحي يا شيخة جتك داء الهنا.

أتم شوقي مهمته على أكمل وجه بعد أن أحرز نجاحًا في اقتناص ابتسامة الفتاة المنوطة بالمعاكسة فاقترب مني وقال:

- ما تشوف لك وزة يا ميسو وإرمي كلمتين يمكن السنارة تشبك.

أصابتني كلماته بالارتباك؛ فخيبتي قوية في المعاكسات ولخمتي عند اقترابي من أي أنثى تدب في أعماقي فيطفو على سطح ملامحي ردود أفعال "مسخرية".

ألبسني شوقي لباس الشجاعة ولقنني بعض الكلمات وقال:

- خش على الحتة القصيرة اللي داخلة علينا دي.

قررتُ الدخول في عالم المعاكسة وراجعتُ في ذهني كل الجمل التي سمعت شوقي يقولها من قبل واقتربت من الفتاة بارتباكٍ وقلتُ:

- قصير بس يحير.

صدمني رد فعل الفتاة التي التفتت ونظرت لي بحدة فازداد ارتباكي وقلتُ:

- طب إيه رأيك بقى إنتي مش حلوة خالص.

لم ترد الفتاة وأسرعت خطوتها فعدت إلى "شوقي" الذي ضحك وقال لي:
- لسه محتاج تمرينات كتير يا ميسو.. بس ييجي منك في الكار ياض.

- طب تعالى ندخل السيكشن.. ده أول سيكشن في التيرم يا عم الفاسد.

- طيب يا عم الناجح.. وبالمرة نشوف الوز اللي ف الدفعة بتاعتنا.

قالها وضحك على طريقة تجار المخدرات وتأبط ذراعي وتحركنا لحضور المحاضرة لأقابل ما لم يخطر لي ببالٍ عندما طرقتُ باب القاعة وبأدبٍ قلتُ:

- السلام عليكم.. ممكن ندخل؟

كمن رأتْ شيطانًا قالت:

- هو سيادتك بقى طالب عندي!

ارتبكت وتوقف سيلُ الكلمات في حلقي:

- ده.. ده... أصل.. أ.. أ.. أه.

- اسمك إيه؟

- مستجير الحدق.

كتبت الاسم في ورقةٍ أمامها وأشارت بيدها إلى الباب:

- طب اطلع بره يا حيوان يا متخلف يا قليل الأدب.

لا أحتاج أن أصف شعوري عندما رأيتُ المعيدة الجديدة وهي "تبعزق" كرامتي وتطردني خارج قاعة المحاضرات.

حاولتُ لملمة ما تبقى من كرامتي وأنا أرى شوقي الذي اقتربت جمجمته من الانفجار ضحكًا على هيئتي في هذه اللحظة بعدما اكتشفت أن الفتاة التي

قمتُ بمعاكستها وسبها هي المعيدة الجديدة التي ستُدرس لنا هذا العام.

خرجتُ وأنا ألعن هذا الحظ الأسود وعدتُ إلى البيت لأجد أبي في انتظاري ليعقد جلسة المحاكمة المقررة سلفًا في واقعة الفيلم الثقافي الذي ضبطني أشاهده بالأمس:

- أهلا وسهلا بالبيه بتاعنا.

- إزيك يا بابا.

قلتها وأنا أتأهب لمواجهة حريق تسللت بوادره إلى أنفي عندما قال أبي:

- ممكن حضرتك تفهمني كنت بتهبب إيه بالليل؟

- والله يا بابا ما كنت أعرف إن الفيلم فيه مشاهد وحشه كدا.

- مكنتش تعرف أه.. طب التلفزيون وكسرته والموبايل ده كمان خسارة في جتتك.

قالها وسحب التليفون من يدي ولأن المصائب لا تأتي فرادى ففي هذه اللحظة بالذات رن الموبايل وهو في يد أبي ليجد اسم المتصل "شوقي كباريه".

تحولت نظراتُ أبي إلى سهامٍ ناريةٍ وقام بفتح المكالمة ومكبر الصوت فجاء صوت شوقى:

- إنت فين ياض يخرب بيتك.. ده المزة بتاعة الصبح حالفة ت&*^%^& إنت واللي خلفوك.

- .....

- ولا يا مستجير.. مبتردش ليه!

- .....

اختفت كل حروف اللغة وفرض الصمتُ والذهولُ سيطرتهما على لساني فأغلق أبي الخط وقال لي:

- إيه يا بيه.. مردتش ليه على الأستاذ شوقي كباريه!

- يا بابا ده بيهزر والله.

- إنت عاوز تتربى من أول وجديد.

- يا بابا.. والله حضرتك فاهم غلط.

- غور على أوضتك عشان مساويش جثتك بالأرض.

قالها وأغمض عينه فاختفيت من أمامه آملا أن يمر الموقف بسلامٍ ودخلت غرفتي وأنا أترقب عقاب أبي وتساؤلاته حول حوار "المزة" التي ذكرها شوقي الحيوان الذي جاء ليطمئن عليَّ في منزلي فأدخلته غرفتي وأنا أقول:

- الله يخرب بيتك.. يعني مش عارف تمسك لسانك.. أبويا أخد التليفون وسمع المكالمة بتاعتك.

ضحك شوقي وقال:

- لا يا راجل.. شكله نفخك.

- كله بسببك يلعن أبو معرفتك.

- يا عم كبر دماغك بقى.. تلاقيه نسي.

- نسي مين يا عم أبويا بيخزن زي الجمل.

- والنبي إنت اللي جمل.. إيه الحلاوة دي يا واد يا ميسو.. يخرب بيتك وإنت عسلية كدا.

قالها وتحولت الغرفة إلى سيرك بعد أن تناسيت مصائبي مع أبي وبدأت جولة "شوقى" بافتعال التحرش بي ومغازلتي:

- والنبي بيضة وحلوة.

اندمج شوقي في السفالة وأطلق ضحكةً رقيعةً فاقتحم أبي الغرفة وفي يده الحزام الجلدي العتيق وصرخ:
- بتعملوا إيه يا حمار إنت وهو!

في هذه اللحظة لو أقسمت لأبي بكل الأديان أن ما يحدث مجرد مزاح فلن يصدق فآثرت الصمت.
جُنَّ جنون أبي وهو يضربني أنا وشوقي في كل الاتجاهات وبكل ما تطوله يداه وهو يصرخ:

- والله منا اللي هربيك.. الحكومة اللي هتربيك.. والله لأسلمك بإيديا.

لم ينقطع سبابُ أبي الذي اخترق أذني بعدما سحبني شوقي جريًا على

السلم وأصبحت لأيامٍ ضيفًا مقيمًا في منزل شيطاني المُقرب "شوقي كباريه".

*****

امتدت إقامتي عند صديقي لأيام حتى نجحت قوات حفظ السلام الأسري المتمثلة في أمي بإقناع أبي أنني "سأمشي على العجين ولن ألخبطه" فوافق على عودتي بشروط أهمها أن أحصل على تقديرات ترضيه.

التزمت بالعهد حتى انتهت رحلة تلقيني وحصلت على الشهادة التي تثبت نجاحي في دس وتكديس تلال من المحفوظات والمسلمات داخل جمجمتي وصرت بلا فخر خريجا جامعيا "طازة بالكرتونة".

وتقديرا لخبراتي اللوذعية فقد كافأتني الدولة وحجزت لي مقعدا مميزا في "مقهي العواطلية" الذي احتواني وغمرني بدفء خالص يعادل حضن الأم.

وقد نص قانون المقهى ألا أحتل مقعدي بدون "مشاريب" فكنت على استحياء أتركه لأتقدم بأوراقي إلى وظائف أعلم سلفًا أنها سرابٌ يحلم به الظمآن حتى جاء يوم و.....

****

هذا الصباحُ مختلفٌ تمامًا.. فقد تفرَّغ مجلس إدارة حارتنا الموقرة للمباركات والدعوات ولم ينقطع سيلُ الزغاريد من لسان جارتنا العزيزة أم وزة التي قطعت طريقي في منتصف الشارع واحتضنتني بحميميةٍ شديدةٍ وقالت:

- ربنا يحميك لشبابك ويعلي مراتبك يا مستجير يا ابن سعدية.

تملصت من قبضة أم وزة فتسلمني الأسطى جابر الميكانيكي:

- متنساناش بقى يا أوستاز مستجير لما تعدي وتبقى جورنالجي قد الدنيا.

- إزاي ده يا عم جابر.. وأنا أقدر!

قلتها وأنا أبتعد قدر الإمكان بعد أن غمرتني رائحة الجاز عندما طرق على كتفي ثلاث مراتٍ فاقترب جابر مرة أخرى وقال:

- سايق عليك النبي تشوف شغلانة للواد بكر ابني عند حد من معارفك.. ما إنت هتبقى في العلالي وقريب من كبارات البلد.

اكتفيت بابتسامةٍ وعدَّلت من هندامي واستوقفت تاكسي حتى تكتمل الوجاهة؛ فاليوم هو الأول لي في جريدة "الحقيقة الحرة" كمحرر تحت التمرين، وهذا حدثٌ لم تدعه أمي يمر مرور الكرام، فلم تترك كائنًا حيًّا تعرفه إلا وأخبرته بهذا الأمر.

انحرفتُ عن الواقع لتتلقفني أحلامُ اليقظة فرأيتُ فيما يرى الحالم أنني أجلسُ

على مقعدٍ جلدي وثيرٍ ويتربع اسمي الثلاثي على صفحات الجريدة مصحوبًا بالانفرادات والخبطات الصحفية المثيرة لأصطدم بصوت السائق الذي قال بحدةٍ:

- الجرنار قدامك أهه يا أفندي.. تالت عمارة على اليمين.

استفزني أسلوب السائق المليء بالقرف وفكرت للحظاتٍ أن أسأله بلطفٍ عن سر معاملته الخشنة فعاجلني وقال:

- وإنت بقى بتشتغل في الجورنار ده يا أفندي؟

أجبته بفخر المنتمي لوسطٍ عريقٍ:

- أيوه.. بشتغل صحفي.

تكوَّمت كل علامات القرف على ملامحه وقال:

- أهو كلكو بياعين كلام وشوية حرامية.. ربنا يكفينا شركم.

قالها فاكتفيتُ بالصمت خوفًا من الدخول في معركةٍ ربما أخسر فيها البدلة التي استعرتها من صديقٍ لأحضر بها أول يومٍ في الجريدة وانسحبتُ قبل أن يتهور ويفرمني تحت إطارات السيارة وأصبح أشلاء مستجيرية.

وصلتُ إلى مقر الجريدة الكائنة في إحدى البنايات القديمة وصعدتُ سلالم كثيرةً من المؤكد أنها تقربني من النجومية؛ فوجدتُ لافتةً خشبيةً معلقةً أمام إحدى شقق الدور السادس والأخير مكتوبًا عليها: "جريدة الحقيقة الحرة.. أوسع الصحف انتشارًا".

دخلتُ فلم أجد بالمكان إلا بعض الكراسي وثلاثة أجهزة حاسب آلي انتهى عصرها من سنين وشخصًا واحدًا لم يلحظ وجودي، اقتربت منه فارتبك وأغلق الشاشة في لحظةٍ فعرَّفته بنفسي:

- أنا مُستجير معاطي الحدق.. كنت بعت للجريدة السي في وحضراتكم وافقتوا على تعييني محررًا تحت التمرين.

ابتسم بسماجةٍ، وقال:

- أهلا وسهلا يا.... قلت لي اسمك إيه؟!

- مستجير يا فندم.. مستجير معاطي الحدق.

- تمام تمام.. أنا الأستاذ جميل جمال مدير تحرير الجريدة.

- أهلا بحضرتك يا فندم.

- آه آه.. قولي يا مستجير.. يا تري شايف إنك تقدر تقدم إيه للجرنال من أفكار جديدة?

- يا فندم آنا عندي خطة رائعة بتتضمن سلسلة تحقيقات صحفية وحوارات مع شخصيات سيا.....

قاطعني الرجل وقال:

- بص يا عم مستجير.. إحنا هنا بنقدم محتوى مختلف شوية وهتتعرف عليه لما تنزل الأرشيف وتبص على الأعداد القديمة.

- طب وبالنسبة للمرتب يا فندم؟

- راتب إيه يا حبيبي اللي بتتكلم فيه.. إنت لسه في بداية الطريق!

- يعني إيه يا فندم؟

بمنتهى التعالي قال:

- أول شهر بدون أجر لأنك لسه بتتدرب، وبعد كدا هتتحاسب بالقطعة.. الموضوع بعشرة جنيه.. وطبعا جمب كل ده هتجيب إعلانات للجرنال ولك عمولة محترمة.

سيطر الذهول على عقلي، فأكمل مدير التحرير بتعالٍ:

- بص يا مستجير.. شغلك معانا في الجرنال فرصة عمرك وآلاف الشباب يتمنوا يشتغلوا هنا.. بس إحنا بنختار الشباب الكفء الطموح.

لم أعلق وإنما تجوَّلت بعيني في المكان ولم ألمح طرف كائن حي في المكان، حتى فاجأني أحدهم وقد رفس الباب بقدمه ودخل بلا استئذانٍ واعتلى مكتب الأستاذ جميل الذي قال:

- أعرفك بالأستاذ نبيه أزميل محرر زميلك في الجرنال.. لازم تتعاون معاه.

بلا رد تأملتُ ملامح الزميل نبيه أزميل، شاب طويل القامة بشكلٍ ملحوظٍ، يُعاني على الأغلب من بعض التأخر العقلي ولا تنقطع السوائلُ التي تسيلُ من شفتيْه مع بروزٍ نسبي في الفك العلوي، يرتدي بنطلون جينز أعتقد أنه لأخيه الأكبر لأنه يصلُ إلى صدره وتلعب أصابعُه التي برزت من صندل بُني اللون غريب الشكل.

اصطحبني نبيه بلا كلامٍ إلى غرفةٍ جانبيةٍ بها بعض الكراسي المكسورة وبعض الأعداد القديمة للجريدة ملقاةً على الأرض في إهمالٍ.

التقطت أحد الأعداد وبدأتُ في التصفح وبجانبي نبيه لم ينطق بحرفٍ حتى ظننتُ أنه أبكم، إلا أنه نطق فجأةً:

- معاك سجاير يا سطى؟

قمتُ بحماية وجهي من قذائف البُصاق الذي تطاير من فمه، فابتعدت خطوتين وقلتُ لنفسي:

- ده طلع عبيط!!

لم يقطع سيل أفكاري وطور اندهاشي إلا شخصٌ بشوش الوجه دخل مبتسمًا عرَّفني بنفسه:

- أنا مجدي نور محرر هنا في الجرنال.

- أهلا أستاذ مجدي.. أنا مستجير الحدق.. المحرر الجديد.

قطع حوارنا ما يفعله نبيه الذي جلس على أحد المكاتب ودسَّ إصبعه بأنفه فضحك مجدي وقال لي بصوتٍ منخفضٍ:

- ربنا ابتلانا بالواد ده.. نص محررين الجرنال طفشو بسببه.

- ليه يا أستاذ مجدي؟

- ده يا سيدي ابن أخت مدير التحرير ومعاه دبلوم صنايع وهو حاشره هنا في الجرنال عشان خاطر أمه متزعلش.

- يعني عاوزين يفرحوا الواد يقوموا يشغلوه صحفي!

- بالظبط كدا.. اكسبه تكسب مدير التحرير يا عم.

قالها وابتسم ونادى على نبيه:

- واد يا نبيه.. تعالى هات لي علبة سجاير.

وكأن عفاريت الأرض تلبَّست نبيه الذي قفز عدة قفزات وقال:

- فوريرة.. بس هاخد نُصها يا مجدي.

بدأت تتكشف طبيعة العمل في هذا المكان ومرَّت الأيام الأولى وبدأ مدير التحرير يُوزع تكليفات العدد الجديد وكانت الصدمة الأولى عندما قال:

- مستجير.. هتعمل لنا تحقيق عن الحلاوة الطحينية وتأثيرها على القوة الجنسية.

- إيه يا فندم.. الأيام دي انتخابات مجلس الشعب.. مفروض نغطي الحدث ده!

- يا عم شعب مين..عاوزين موضوعات ملهلبة عشان العدد يبيع يا ابني.

لم ينتظر ردي وقال:

- أه.. وعاوزك تخلي بالك من نبيه ومتزعلوش.

سافرت بانتباهي بعيدًا وأنا ألعن الحظ الذي دفنني في هذا الوكر الأصفر، ولكني اعتبرتها بداية تجربة ولا بد أن أتممها فأومأتُ لمدير التحرير وتسلمتُ تكليفاتي واصطحبت "نبيه"، وقلتُ له:

- هو مفيش محررين هنا غيرك إنت ومجدي؟

بعد جهدٍ خارقٍ بذله في التفكير أجاب:

- لا.. كان فيه ناس كتير بس مش عارف سابو الجرنان ليه!

قلتُ له وأنا أضع يدي على كتفه:

- لا يا راجل.. احلف!

- ومقام سيدي الشباشيبي ما أعرف.

- شكلها هتبقى أيام زرقا هنا يا عم نبيه.

- بُص يا مستجير.. عاوزين نعمل حبة مناشت نار.

- نعمل إيه يا خويا!

- مناشت يا مُستجير.. من اللي هي بتبقى بخط كبيييييييير دي.

- منااااشت.. ده إحنا نهارنا زي الفل والله.

توكلت على الله واصطحبت نبيه؛ القدر الذي قدره الله وألقاه في طريقي من خلال مدير التحرير، وأنهيت بعض التكليفات وللأمانة فقد ساعدني نبيه الذي حوَّلته لبودي جارد يُضيف لي بعض الوجاهة الاجتماعية.

وأخيرًا ظهر العدد الأول الذي يحملُ بين صفحاته اسم "مستجير معاطي الحدق"؛ استقبلته بلهفةٍ واستقبلت معه صدمة حياتي عندما وجدتُ ثلاثة موضوعات قمتُ بها منشورةً ومذيلةً باسم جميل جمال، وخبرًا وتحقيقًا مذيلًا باسم نبيه أزميل، وبعض الموضوعات والأخبار مذيلة بأسماء لا أعرفها ولم أجد لاسمي أثرًا يُذكر فتوجهت إلى مكتب جميل ووجدته كما عهدته متوحدًا مع ما لا أعرفه على شاشة الكمبيوترالتي أغلقها عندما لمحني، فقلتُ:

- موضوعاتي نازلة باسمك إزاي يا أستاذ جميل وباسم نبيه!

- يا ابني إنت لسه تحت التمرين.. ولازم تصبر.

- أصبر إيه.. وبعدين الواد الأهطل اللي اسمه أزميل ده شغلي ينزل باسمه ليه؟!

توترت ملامح جميل، وقال:

- كله إلا نبيه.. هو على قده شوية بس منقدرش نستغنى عنه.. هو بس عنده مشكلة صغيرة.. مبيقدرش يعبر قوي بالكتابة.

حاولتُ ابتلاع الصدمة فتوقفت في حلقي ومنعتني من التنفس وأدركت تمامًا أنني أعمل في معملٍ لصنع الطرشي وسط مجموعةٍ من "البلاليص" وقررتُ أن ألقن "بائع الطرشي" درسًا لن ينساه.. لن ينساه أبدًا.

بدأنا في عقد جلسات تحضير العدد القادم وأنا أقوم بالتخطيط لشيءٍ مختلفٍ تمامًا.. وخرجنا من الاجتماع أنا ونبيه الذي اصطحبته على مقهى قريبٍ وقلتُ له:

- بص يا أبو الأنباه.. عندي لك فكرة بمليون جنيه.

ثم أكملتُ بخبثٍ:

- بس عاوز منك خدمة صغيرة وهخليك نجم صحفي يا واد يا نبيه.

اقترب نبيه فأغرقني بمخلفاته الفموية؛ ابتعدتُ وقلتُ:

- تحقيق صحفي هتعمله لوحدك.. ومش محتاج مجهود.. هيخليك نجم يا واد يا نبيه.

- بس أنا مبعرفش أكتب يا مستجير!

- مش محتاج كتابة يا واد.. اسمعني بس!

- قول يا سطى!

- عاوزك تتصرف وتجيب لي الباس وورد بتاع كمبيوتر خالك جميل.

لم يزد نبيه في مناقشتي طمعًا في النجومية، وبالفعل في نفس اليوم كان الرقم السري لجهاز مدير التحرير ينام في ورقةٍ داخل جيبي.

وبسهولةٍ أقنعت نبيه أن يذهب لمخرجٍ تليفزيوني شهيرٍ كان قد سبق اتهامه في قضايا شذوذ جنسي واغتصاب المساعد الخاص به ليقوم بعمل تحقيقٍ بعنوان: "ماذا يفعل المشاهير في دورة المياه؟".

لفترةٍ من الوقت اختفى نبيه أزميل بعد أن كلفته بهذا التحقيق ومن المؤكد أنه الآن يتناول بانتظامٍ علاجًا مكثفًا "للبواسير".

وحان الوقت لتلقين مدير التحرير درس لن ينساه.

عمَّقت صداقتي بالمطبعجي من خلال زميلي مجدي وبأحقر قطعة حشيش استطعت إقناع الرجل بتعديلاتٍ بسيطةٍ وللأمانة فعل الحشيش بالرجل الأفاعيل ليظهر العدد الجديد وبه خطأ مطبعي طفيف بعد استبدال كلمة بكلمة في صدر العدد لخبر يقول:

"وزيرة الإسكان حليمة حلمي تتبول في أرض مشروع إسكان الشباب".

وليكتمل بهاء العدد قمنا بعمل تداخلٍ بسيطٍ لخبر عن بيع بعض المواشي مع تهنئة محافظ المدينة بمولوده الجديد وكانت صيغته النهائية:

"سيتم بيع محافظ القاهرة في مزادٍ علني يوم الأربعاء الموافق1 يناير، وعلى الراغب في الشراء الحضور في الزريبة الملحقة بالمنزل في العنوان المحدد".

وتلاه الخبر الآخر:

"رُزق حضرة المحترم عجل جاموس بمولود.. نتمنى له عمر مديد.. أبلغ تهانينا لسيادته".

لم أكتف بهذا القدر، وإنما دخلتُ على جهاز جميل بعد انصرافه ووجدت ما

توقعته، وما هي إلا لحظات وكانت بين يدي أسطوانة عليها كل الفضائح الجنسية للسيد المحترم جميل جمال الذي استيقظ في اليوم التالي ليجد نفسه حديث الساعة وملقبًا بـ"عنتيل الصحافة".

دعني أسألك سؤالًا بسيطًا جدًّا.. بماذا ستشعر عندما يُنادى باسمك على الأرصفة:

- قرب تعالى.. اتفرج على عنتيل الجرنان بخمسة جنيه بس.

- قرب يا عم أسطوانة البغل بخمسة بس.. متدفعش أكتر من خمسة.

بالطبع لم أنس قبل أن أغادر مقر هذا الوكر لآخر مرةٍ أن أقوم بتعديل بسيطٍ على اللافتة الصغيرة المثبتة بجانب الباب لتصبح:

"جريدة الحقيقة الحرة.. أوسخ الصحف انتشارًا"

****

ومن جريدة "الحقيقة الحرة" انتقلت إلى مجلة "دلع الصبايا" التي طُردت منها لأنني كما قال رئيس التحرير غير كفء في "تدليع الصبايا"، حتى جاء الختام في جريدة "أخبار الحوادث" التي افتتحت صفحاتها بخبر فقداني لأبي العزيز بعدما تمسك بالفهلوة المصرية وشرع في إصلاح بعض الوصلات الكهربية فامتصت الكهرباء دماءه.

رحل أبي وترك لنا الستر وبعض الديون التي اجتهدتُ في سدادها سنوات حتى غمرني شعورٌ أنني أحفر بحرًا بملعقةٍ ورقيةٍ وصارت أحلامي عن الارتباط شبحًا يتراقص أمامي فيثير غرائزي ويهرب فجأة كلما حاولت الانقضاض عليه، فالراتب لا يتسع لاستيعاب مثل تلك الرفاهيات التي عصرت خلايا مخي واحدة تلو الأخرى حتى جاء يوم و....

****

"يا ماما يا أما يا ماماتي.. سلاماتي قبلاتي سعدياتي"

دخلتُ على الغالية بهذه الكلمات التي تحملُ من "الأونطة" ما يكفي فضحكتْ وقالت:

- خير يا أخرة صبري!

- ماما مش إنتي دايما تقولي إنك مخلفة قنفد؟

جلجلت ضحكة أمي وقالت:

- اشمعنى افتكرتها دلوقت؟!

نكشت لها شعري لأتشبه بالقنفد، وقلتُ:

- متعرفيش، متعلميش، مسمعتيش، إن الأيام دي موسم تزاوج القنافد يا سعدية.

- يعني عاوز إيه يا روح سعدية?

قلتُ مقلدًا محمد هنيدي:

- أمّا أنا عاوز أتدووووز.

استحضرت أمي روح ماري منيب:

- جواز إيه دلوقت يا فقران يا عدمان يا جربان.. هو إنت لاقي تاكل!

لبست قناع المسكين وقلتُ:

- ما تشوفي ميراثك في بيت أبوكي يا حجة وتبقى ساعتها اتحلت المشكلة.

قلتها فأخذتها أمي على محمل الجد، وقالت:

- طب سيب الموضوع ده لما أقابل خالك وأكلمه في موضوع البيع.

قالتها أمي فأعادت توليد الذكريات العائلية بداخلي وتذكرت المثل القائل "الأقارب عقارب" الذي تجسَّد بكل معانيه في عائلتها المُشرفة وعلى رأسها العقرب الأكبر المُسمى بعنطوز.

عنطوز هو الأخ الأصغر لأمي الذي لم يسلم من لدغاته كبيرٌ ولا صغيرٌ؛ فلا حلَّ يومًا ضيفًا علينا إلا وطالتني لدغاته، فمرة يسرق جوربًا "مخروقا" وأخرى يسرق حذاء كان لي وأصبح بعدها في عداد المفقودين، حتى ملابسي الداخلية لم تسلم من يده التي تُشبه "الملقاط".

ألقت بي أمي في خواطري "العنطوزية" العطرة فتحسستُ جيوب بنطلوني وقلتُ:

- خالي.. ده أنا بعدّ صوابعي بعد ما بسلم عليه.

- ما له خالك يا ولا!

- لا مفيش يا ست الكل.. خالي ده برنس وزي الفل.

حاولتُ تغيير مسار الكلام، فقلتُ:

- متخيلة يا سعديتي لما مستجير يتجوز ويخلف لك زوربة عيال وتبقي جدة.

ضحكت أمي وقالت:

- والله وكبرت يا مستجير يا سندي وبقيت راجل.

قالتها أمي لتشحن طاقتي النفسية فتلحفت بكل المعاني الإيجابية القوية

وصارت خيالاتي ترسم لي المعارك الحياتية القادمة، وغرقت تمامًا في أحلام اليقظة التي انتشلني منها صوتُ طَرقات عفية على الباب تُنذر بخطر قادمٍ فتيبست أطرافي وتوقفت تلافيفُ مخي عن العمل وخلعت ثوب الشجاعة وألقيته في أقرب مصرف.

قالت أمي بصوتٍ هامسٍ:

- مين اللي هيخبط علينا كدا في نص الليل يا بني!

تكررت الطَّرقات وازدادت عنفًا وصحبها نداءٌ من صوتٍ أعرفه:

- افتحي يا سعدية.. أنا عنطوز!

سمعته فقلتُ بصوتٍ منخفضٍ:

- والنبي لو بنجيب في سيرة ربع جنيه مخروم ما كان هييجي.

هرولت أمي لتفتح ولحقتها عند الباب لأجد خالي عنطوز قد استحم بدمائه وغلف معالم وجهه بحروقٍ غبيةٍ فشهقت أمي ولطمت صدرها:

- هببت إيه المرة دي يا عنطوز؟!

اختطف الخال بعض الكلمات من بين لهاثه:

- دخليني الأول يا سعدية وهحكيلك.

أفسحت أمي الطريق وأدخلته وأغلقت الباب فرمى جثته على المقعد القريب وقال:

- أرواح.. أرواح يا سعدية.. حرقتني وضربتني.

- وعملتْ كدا ليه يا عنطوز؟!

قالتها أمي بنفاد صبر، فهي تعرف تمامًا أفاعيل خالي عنطوز الذي اعترف لها أن زوجته أرواح اكتشفت سرقته لبعض مشغولاتها الذهبية ونشبت بينهما معركةٌ أحرقت فيها وجهه بالماء المغلي وأفقدته ثلاثًا من أسنانه الأمامية بقبضة يدها.

- تستاهل يا عنطوز.. مش هتبطل الداء الوسخ اللي فيك ده!

استعاد عنطوز قناع "الاستهبال"، وقال:

- وهو فيه فرق بين الراجل ومراته يا اختي؟

- تقوم تسرقها يا عنطوز.. دلوقت تلاقي أخوها فوزي بيدور عليك.

وقعت حروف اسم فوزي على أذني خالي كما تقع المطرقة على رأس المسمار فتقوقع وانغرس بداخل المقعد وتكهربت أعصابه وتلجلج لسانه.

فكلنا نعرفُ آن فوزي صول في المباحث ويمتلك في يده كفًّا يشبه الحذاء، وإن طالت يداه خالي عنطوز فحتمًا سيسبق اسمه في الحال لقب "المرحوم عنطوز حامد دبوس".

وبطبيعة الحال سيستقر عندنا خالي عنطوز حتى تهدأ الأمور ونجد طريقًا للصلح بينه وبين أرواح، فقالت أمي:

- دلوقت تقوم تنام والصباح رباح نبقى نشوف هنعمل إيه.

مرَّت تلك الليلة الغريبة ليأتي صباحٌ أغرب عندما استيقظت أمي ولم تجد خالي، فقالت لي:

- هيكون راح فين يا مُستجير؟

- والله يا ماما منا عا....

بترت كلماتي صيحاتُ الجيران فخرجتُ لأجد كل مَن في الشارع وقد تجمعوا وهم في حالة ذهولٍ بعد أن بدأوا يومهم بخبر اختفاء كل أغطية بلاعات الصرف الصحي المعدنية!

تبادلنا النظرات أنا وأمي وتوقعنا تمامًا مَن الجاني الذي جاء بعد العصر كالذي فتح عكا يحمل أكياس الفاكهة والمشروبات الغازية واللحوم والخبز، وقال لأمي:

- لقمة هنية يا سعدية.

- كنت فين يا عنطوز؟

- كنت بشتري أكل يا غالية.

- والله يا عنطوز لو اللي ف دماغي صح.. هتبقى ليلتك سودا.

- عليا الطلاق ما عملت حاجة!

وبعد مناوراتٍ وتضييق الخناق على خالي اعترف لأمي أنه سرق أغطية البلاعات في الفجر وباعها لتاجر خردة في سوق الجمعة مقابل مائتي جنيه، فهددته أمي:

- قسمًا عظمًا.. لو ما بطلت عمايلك دي لأسلمك للقسم بإيدي.

- سماح المرة دي يا أم مستجير بقى.. ده ربنا بيسامح يا اختي.

لانت أمي واستكانت، وقالت:

- طب تعالى عاوزاك في موضوع.

انحنى عنطوز ومدَّد عنقه وضرب عليه بصوتٍ مسموعٍ:

- رقبتي يا اختي.

- آنا عاوزة آبيع نصيبي في بيت أبويا.

- ليه يا سعدية؟!

- بُص يا خويا.. شيل ده من ده يرتاح ده عن ده، وأنا عاوزه أبيع عشان أشتري لمستجير شقة وأجوزه فيها.

حاول المراوغة، وقال:

- يا سعدية ده البايع خسران.. كل حاجة قيمتها بتزيد مع الزمن.

طوقته أمي وحزمته، وقالت:

- بس أنا عاوزه حقي يا عنطوز عشان أجوز الولا.

تبدلت ملامح عنطوز وحاول تغيير مسار الكلام، وقال لي:

- جواز إيه يا ابني.. بلا خيبة، هو لسه فيه حد بيتجوز اليومين دول!

ابتسمتُ وقلت:

- سُنة الحياة يا خال.

ضحك وقال:

- يا عبيط خليك زي خالك.. وشوف لك مزة تمشي معاها.

تدخلت أمي وقالت له:

- يخرب بيتك يا شيخ.. ابعد عن مستجير خالص.. وبعدين إنت بتغير الموضوع ليه!

تبدلت لهجة عنطوز وانقلبت ملامحه وقال:

- بس أنا مش عاوز أبيع يا سعدية.. بيت أبويا مش هيتباع.

أعادت أمي تطويقه وقالت:

- طب خلصني إنت واشتري نصيبي.. ما إنت على قلبك قد كدا!

تداخلت الكلماتُ وخرجت مشوهةً مرتبكةً من لسان عنطوز فشككت أنه يُخفي أمرًا ما تأكدتُ منه عندما قال ببجاحةٍ:

- نصيبك أكلته القطط يا سعدية، أبوكي كتب لي البيت كله قبل ما يموت.

سمعتْها أمي فلطمتْ وصرختْ وهجمتْ على جسد خالي الذي قال:

- إبقي تعالي خدي حقك مني يوم القيامة العصر.. ووريني ابنك الخروف ده هيعمل لك إيه!

رنَّت كلماته في أذني فلم أتدخل لفضِّ هذا الاشتباك وقرَّرت في لحظاتٍ أن أهدي عنطوز هديةً لن ينساها طوال حَياته بعد أن تسللت وأحضرت الحبل

المُخصص لربط المواشي.

للأمانة أعترف أن مقاومة خالي لم تُرهقني حتى أتممت ربطه في ماسورة "الصرف الصحي" المنتصبة في أسفل المنزل بفضل مساعدة أولاد الحلال بعد أن صرخت:

- حرامسسسسسسسي.

وبالطبع لم أنس عزومة زوجته أرواح هاتفيا فجاءت بصحبة السيد فوزي "أبو كف رقيق وصغير" الذي دخل وعلى غفلة رنَّت يداه عشوائيا "بطرقعة حكومية مميزة" على قفا عنطوز، وقال له:

- قول أنا واطي عشر مرات يا عِرة الحرامية!

باستسلامٍ شديدٍ قالها عنطوز عشرات المرات، واصطحبه فوزي في رحلةٍ ترفيهيةٍ إلى القسم ليُدربه على فنون النفخ والرفع.

وتطوَّع أحد الأصدقاء الذي حكيت له الموضوع بالاتصال ببعضٍ من معارفه المتخصصين في إحضار الجنين من بطن والدته وقد كان...

لم يعلم خالي بالتأكيد أن هناك من ينتظر خروجه من القسم بعد حفل التعذيب الذي قام به فوزي بالداخل، ليخرج بعد يومَيْن ويتم اختطافه من قِبل مجهولين ملثمين أجبروه على التوقيع على عقد بيع العقار كاملًا للسيدة "سعدية حامد دبوس".

قام عنطوز بالتوقيع والبصم بأصابع الأيدي والأرجل والأذن الوسطى بعد أن أوشك أحدهم على بتر.... إصبعه "مشيها إصبعه".

****

جاء عنطوز إلى أمي وعلى أقدامها طبع قبلاته وسكب توسلاته؛ فرقَّ قلبُها واكتفت بأخذ ميراثها الشرعي وتنازلت له عما تبقى وأصبحتُ بعدها من ذوي الممتلكات بعد أن وهبتني أمي نصيبها الذي تمثل في "شقة بحرية أربع مطارح وعفشة مية".

اقتربت من الإصابة بلوثة عقلية عندما أخبرتني أمي أنها تريد أن تتخلص من إزعاجي وستدخلني القفص الذي طالما حلمتُ به بصحبة "حتة طرية" تُشاركني حنوني ومجوني.

وكأن أمي بهذا التصريح أزاحت غطاء بالوعة أحلامي فتحررت تخيلاتي وتضخمت أمنياتي وتجرأت في رسم مواصفات فتاة أحلامي التي بالضرورة لن تختلف كثيرًا عن فنانةٍ مشهورةٍ تمتلك من الكنوز الدهنية ما يجعلها بلا مبالغة مذيبة لأعصاب الشباب.

وجاء اليوم المرتقب...

****

البهجة تملأ قلبي وتفيض.. هأنذا أستعد اليوم لحدثٍ مهم جدًّا في حياتي، استيقظتُ أدندن:

"يلا يا قلبي يا أسعد قلب نملى الدنيا حب في حب".

اليوم مختلفٌ حقًّا، ألمح والدتي وقد غطَّت معالم وجهها بشرائح الخيار والزبادي وثاني أكسيد الماغنسيوم غالبًا، فقلتُ لها وأنا أغالبُ الضحك:

- إيه ده يا ماما.. والله شكلك إنتي اللي ناوية تشوفيلك عريس.

داعبتني وقالت:

- إتلم يا ولا بدل ما أرجع في كلامي.

تظاهرتُ بالتوسل، وقلتُ:

- خلاص والنبي يا أما.. هقعد ساكت وجوزيني يا أما.

جلجلت ضحكاتُ أمي فنفذ صداها داخل قلبي ليعلن عن قدوم الفرحة مجسدةً في لحم ودم ومانيكير وأي لينر، فاليوم ميعاد مقابلة العروس التي رشحتها جارتنا أم عاطف لأمي، وهي بنت زميلة لها تعمل معها ممرضة في المستشفى.. لابد ألا أنسى تفصيلة واحدة، فالانطباع الأول مهم جدًّا.. جهَّزت القميص والبنطلون ولمَّعت الحذاء واشتريتُ علبة شيكولاتة "كوفارتينا" و..أأأ.. تفاصيل لا نهائية.....

- مش كنا نتقابل في مكان عام يا ماما قبل زيارة البيوت دي!

- خلاص بقى يا مستجير.. وبعدين القبول ده بتاع ربنا، مش هيفرق بقى جوَّه البيت ولا بره، متبقاش حنبلي.

قالتها وضغطت على الجرس فانخلع قلبي، وقلتُ لها:

- ما تيجي نجري!

- اختشي بقى يا ولا.. إنت مش كنت فرحان الصبح.. إيه اللي حصلك!

قالتها وزغرت بعينها ولوت شفتيها، فرددت مداعبًا:

- اختشي دي انقرضت من زمان يا وزة.

انفتح الباب لأجد طفلًا من الواضح أنهم نقعوه في بحيرةٍ من الصابون والبطاس ففقد بعض طبقات الجلد فبدا لي كالزومبي.. انتزع علبة الـ "كوفارتينا" من بين يدي ونطق بما لا ينطق به عاقل:

- العريس جه يا بت يا ألطاف.

تسمَّرت قدمي ونظرتُ لأمي نظراتٍ لها معنى، فانتشلتني من دهشتي الحركة المفاجئة لأم "الزومبي" وهي تجرُّه من البنطلون وتصرخ فيه:

- خش جوه يا مزغود!

قالتها وابتسمت لتزيل الحرج:

- اتفضلوا يا جماعة، لا مؤاخذة الواد ده مسحوب من لسانه.

لم يعجب الأخ الزومبي كلام السيدة الوالدة وشعر أنه لابد أن يثأر لكرامته المهدرة في هذا المنزل، فانزوى بعيدًا وصرخ:

- الحق عليا إني بستقبل لكو العريس يا ولاد الجزمة.

لم يظهر على الأم أي اندهاشٍ من تصرف الزومبي وكأن هذا هو العُرف في هذا الوكر، ولكنها جذبت أمي من ذراعها فتشككت أنها أصابتها بتمزقٍ في الأربطة وقامت بتطويقها تمامًا، وانهالت عليها بشلالٍ من القُبلات ذات الصوت المسموع وكأنها "مصمصة" وليست قبلات.

وفجأةً انفرج فكها فلمحتُ بعضَ التركيبات فضية اللون فخُيل لي أنها ستدخل في مرحلة "العض" فاختبأتُ خلف أمي اتقاء لشر أم الزومبي، لكنها جذبتني من ذراعي وقالت:

- اتفضل يا حبيبي.. تعالى يا نور عيني..خش يا ضنايا.

دخلتْ أمي وخلفها دخلتُ أترقب أي حدثٍ مفاجئ ولكن وصلنا إلى غرفة الصالون بسلام، ووجدنا أبو العروس في استقبالنا:

- اتفضل يا ابني، اتفضلي يا حاجة.. والله إحنا زارنا النبي.

توسلت للساني لينطق بأي كلمةٍ بعد هذا الاستقبال المهيب فلم يجُد إلا بكلمتين قلتهما وأنا أستنطق:

- تشكر يا حاج.

أما أمي فصمتت تمامًا.

بدأ الحاج أبو ألطاف بالكلام:

- أنا اسمي رمضان عجيلة، بشتغل في شركة الغزل والنسيج، بنتي ألطاف هي البكرية أول فرحتي، علمتها لحد ما أخدت دبلون التجارة.

دخلت الأم وخلفها ألطاف، فتاة ذات أنوثةٍ متفجرةٍ فائضةٍ، تحمل صينيةً عليها أكواب عصير "تانج" وبعض قطع الكوفارتينا التي أحضرتُها معي، أحاطتها أمها بذراعيْها وأطلقت زغرودة تيقظ الأموات.

سمعت الأم تهمس لألطاف:

- اقعدي جمبه يا بت!

تصنَّعت الخجل وجلستْ على كرسي بعيدٍ نسبيًّا؛ بينما عم رمضان يُمارس مهامه في التعريف بنفسه وبالأسرة والترحيب بنا.. اختلستُ بعض النظرات لألطاف أحاول تبين ملامحها؛ جذبتني عيناها الملونتان بالأخضر البرسيمي فاخترق أذني صوتُ عم رمضان الذي قال:

- ما تخليك معانا هنا يا عريس.. ولو عجباك قوي كدا خدها معاك وإنت نازل.

قالها وضحك حتى ترجرج كرشه فاكتفيتُ أنا بابتسامةٍ، فأكمل حديثه:

- أبوك الله يرحمه أنا أسمع عنه.. معاطي الحدق اللي كان موظف في السكة الحديد.

أومأتُ وقلتُ:

- الله يرحمه.

تنحنح الرجلُ وسعل بشدةٍ وبصق على الأرض بجانب الباب ثم هزَّ رأسه وقال:

- طبعًا يا عريس إنت عندك شقتك ولا لسه هتشتري؟

لم يسمح لي حتى بالتنفس، وأردف:

- ما إنت عارف ألطاف البكرية ولازم أطمِّن عليها؛ والله إحنا ما يهمنا المظاهر، بس إنت طبعًا هتجيب شبكة تليق بمقامك عشان نفرح العروسة.

ابتسمتُ وقلتُ:

- أيوه أيوه.. طبعًا يا حاج.

تدخلت أم ألطاف واقتربت من زوجها والتقطت الكلام من لسانه:

- يلا يا رمضان ناخد الحاجة أم مستجير ونقعد في الأنتريه بره.. خلي العرسان يشوفوا بعض ويتكلموا.

قالتها وسحبت أمي الصامتة من ذراعها وتبعها زوجها فالتفتت لي وقالت:

- خد راحتك يا ضنايا.. كإنك في بيتك.

ابتسمتُ لها وقمتُ لأجلس على الكرسي المقابل لألطاف، وحاولت استدرار بعض الكلمات:

- بتشتغلي يا ألطاف؟

كالكروان غرَّدت:

- لا.. بساعد ماما في شغل البيت وبعلم أخويا الصغير القراءة والكتابة عشان سنه لسه ميقبلش في المدرسة.

- بتحبي الأطفال؟

- قوي قوي.

قالتها وعادت لصمتها، فسافرتُ أنا في فضاء أنوثتها وداعب عطرها أنفي، تأملتها وهي تشرب العصير برقةٍ كعصفورٍ بريءٍ فنجحت في اختطاف نظراتي.. غمرتني مشاعر صافية فشعرت أنني دخلتُ الجنة التي لم تُخرجني منها سوى رائحة مخلفاتٍ حيوانيةٍ احتلت ذرات الهواء وتدافعت إلى أنفي فتغيرت معالم وجهي وقلتُ لألطاف:

- إنتوا بتربوا فراخ وبط في الشقة؟

- لا والله..

عادت لصمتها واقتربتُ أنا من الغثيان وازدادت الرائحة التي عرفتُ مصدرها عندما اقتحم الطفل " الزومبي" الغرفة بعدما كشف عورته التي فاحت منها رائحة "بكابورت عمومي"، واقترب من ألطاف وجذبها من ذراعها:

- خلصت يا ألطاف.. تعالي شطفيني!

لم تمر لحظة ووجدنا يد أم ألطاف ترن على قفا "الزومبي" وتلتقطه من على الأرض بعد أن تكوَّم وصرخ وقبض بيديْه على رِجل الكرسي فحاولت أمه أن تسحله ولم تنجح إلى أن انتصر "الزومبي" في النهاية وأجبر ألطاف على أن تذهب معه وكأنه إيذانٌ بانتهاء الجلسة.

ألقى بنا "الطفل الزومبي" جميعًا في قاع هذا الموقف المُحرج فغمغمت أمه وضحك أبوه واحتفظتْ أمي بصمتها ونقر عقلي سؤالٌ واحدٌ يقول:

"ماذا يأكل هذا الجحش ليُفرز هذه العفونة؟!!"

صحبتنا أم ألطاف إلى الأنتريه ولم تمر دقائق واستأذنت أنا وأمي وودعتنا دعوات أم ألطاف بالستر والصحة والسعادة.

بمجرد خروجنا إلى الشارع أقلقني صمتُ أمي فقلتُ:

- مالك يا جميل.. ساكتة ليه؟

- مش مرتاحة للبيت ده يا مستجير.

- إزاي بس.. ده إنتي كنتي فرحانة الصبح.. هو إحنا مبنتفقش أبدًا؟

- يا حبيبي آنا عاوزاك مبسوط وبس.

- البت وزة يا أما وعنيها حلوه وربك الحق هي عجبتني.

أومأت أمي بعدم اقتناعٍ، فتجاهلت ما رأيتُ ولم يمر يومان وقمتُ بأعظم مكالمةٍ تليفونيةٍ في تاريخ حياتي عندما اتفقتُ مع والد ألطاف على ميعاد شراء الشبكة فجاءني صوتُ الزغاريد التي تحررت من حلق أم ألطاف.

في الميعاد المُحدد اصطحبت أمي بعد أن تممت على الأوراق النقدية وحزمتها بالـ"أستك"، وتوجهت إلى منزل الحبايب لأجد في انتظاري ما لم أنتظره أبدًا.

هذه المرة احتضنتني أم ألطاف:

- تعالى يا عريس في حضني!

قالتها وقربتني منها فكتمتُ أنفاسي بعد أن دفستني في صدرها، واكتملت المفاجأة غير السارة بالمرة عندما التقطني من بين ذراعيْها بالتناوب ثلاث جثث بشرية عرَّفتني بهم أم ألطاف:

- دول عمات العروسة يا حبيبي.. سناء وعزة ومنال.

بعد جهدٍ انتهت القبلات والأحضان لي ولأمي، فاقتربت من أبو ألطاف لأحتمي به من هذا الاغتصاب الغاشم لبراءتي، فقالت أم ألطاف:

- يلا عشان منتأخرش يا حبيبي!

- حاضر يا طنط.

قلتُها فالتهمتني نظراتُ أمي التي عرفتُ ما يدور برأسها لأنها بالتأكيد تقول لنفسها:

- حاضر من أولها يا روح أمك.. جتك خيبة على اللي خلفتك.

خرجتُ سريعًا من مجال خيالاتي مع أمي لأصطدم بصخرة الواقع عندما قالت أم ألطاف:

- عزة وسناء ومنال هييجوا معانا وإحنا بنشتري الدهب يا ضنايا.

- حاضر يا طنط.

نزلنا من البيت واتصلت بأحد معارفي من سائقي الميكروباصات ليشحن هذا الجيش إلى محل الجواهرجي وانطلقنا.. لم تكف الألسن عن الزغاريد حتى وصلنا فنزلوا تباعًا ودخلوا المحل كقافلة الصحراء، فانتفض البائع:

- اتفضلوا يا هوانم.. اتفضلي يا ست الكل.

تفضلت الهوانم وانجعصوا على الكراسي المكسوة بالجلد بكل ألاطة، وجلست ألطاف على استحياء فاقتربتُ وقلتُ لها:

- نقي اللي يعجبك يا ست الكل.

تفنن الرجلُ في عرض بضائعه لألطاف فمدَّت إحدى العمَّات رأسها وقالت لها بصوتٍ سمعته بوضوحٍ:

- نقي أغلى حاجة يا بت.. سيبك من الشغل العفش ده!

تظاهرتُ بالصمم حتى لا تشعر أمي ويفسد اليوم، فأعادت العمة ما فعلته:

- يا بت بلاش شغل فيه فصوص.. هاتي دهب صافي وتقيل.

هذه المرة لعنتُ هذه العمة في سرّي، ودعوت عليها بكل الأمراض الخبيثة وأنا أبتسمُ ابتسامةً تحلم أن تتحول إلى سهمٍ من لهبٍ يخترق أحشاء هذه الحرباء.

استقرت ألطاف على بعض القطع فارتفعت الزغاريد للمرة العاشرة وعادت الأحضان بكل ما تحمله من دكٍّ لعظامي وعظام أمي، لتنتهي اللحظة بمفاجأةٍ أوقفت الدورة الدموية في شراييني للحظاتٍ:

- الفلوس.. الفلوس وقعت مني.

قُلتها وأنا أتحسس جيبي الذي نامت فيه خمسون ورقةً ماليةً من فئة المائتي جنيه وسقطت على الأرض بعد أن أصيبت أطرافي ببوادر شللٍ مؤقتٍ فأطلقت أمي صوتها وطرقت صدرها، وأظلمت الدنيا مِن حولي.

تحسستُ رأسي بعد أن رُدت إليَّ روحي فوجدتني في الميكروباص بعد أن أفاقوني وغادرنا المحل ودموع ألطاف تسيلُ على خدها فازداد ألمي وقلتُ لها:

- متقلقيش.. ربنا هييسر وهشتريلك الشبكة يا ألطاف.. ربنا كريم.

تحرَّك السائقُ وصمت الجميع إلا من أخو ألطاف الطفل الزومبي الذي رأيته يفعل أخر شيء كنتُ أتوقعه.

أخرجتُ من بين أسناني أصواتًا هيستيريةً لم تكن لي قدرة على التحكم فيها عندما وجدت هذا الجحش يجلسُ في أخر كرسي في الميكروباص ويقبض بيديْه على كتلةٍ ورقيةٍ ماليةٍ تتحزم بالأستيك ويقوم بتقطيعها ورقةً ورقةً ويُلقي بها من الشباك وهو في حالةٍ من النشوة فانتبهتْ له أمه وجذبتها من بين يديه :

- يخرب بيتك يا موكوس.. بتهبب إيه؟!

انتفض الزومبي واعترض:

- لقيتها على الكرسى.. هاتي يا ست إنتي دي بتاعتي!

قالها وتحررت الأصوات المعترضة من حنجرته فأخرسته أمه بلطمةٍ حاسمةٍ، وقالت لي:

- فلوسك حلال يا حبيبي.. الحمد لله منقصوش كتير.

حمدتُ اللّه وشكرت فضله وعادت الزغاريد وتراقصت الأفئدة، فقلت لها:

- لا لا لا.. إحنا لازم نشرب حاجة عشان نهدى يا طنط.

قُلتها وطلبتُ من السائق أن يقف دقائق لأشتري بعض العصائر وأنا أخطط لأمرٍ مختلفٍ تمامًا..

تمامًا جدًّا.. التفتُّ إلى الزومبي وقلتُ بابتسامةٍ مسمومةٍ:

- تعالى يا حبيبي معايا نشتري العصير.

قلتها فداعبت الكلمات شهيته ونزل معي فأخرجت من جيبي جنيهًا معدنيا وبحركة تعمدتُ ألا تظهر مقصودة ألقيت بالجنيه في منتصف الطريق.

وكما توقعتُ تمامًا.. ترك الزومبي يدي وجرى ليلتقط الجنيه من نصف الطريق فشهقت أمه وشق صراخها عنان السماء:

- ابنسسسسسسسي.

تكحلت عيناي وأنا أرى هذا الجحش الذي تحوَّل إلى حيوانٍ طائرٍ بعد أن صدمته عربةٌ طائشةٌ في منتصف الطريق لتظل هذه الذكرى السعيدة متجسدةً في صور حفل الخطوبة بعد أن سكن بذراعيْه وقدمه اليسرى في الجبس لشهور.

****

<u>افتتحت حماتي مراسم ما بعد الخطوبة بعزومتي على الغداء التي حدث فيها ما لم أتخيله أبدًا..</u>

<u>عندما بدأنا في الأكل لاحظت تبدل ملامح الحاج رمضان التي انقلبت رأسًا على عقبٍ في لحظاتٍ وأصيب بجلطةٍ تلاها شللٌ نصفي وعلا الصراخ.</u>

<u>وفي المستشفى قضينا النصف الثاني من اليوم فاقتربتُ من حماتي أشد من أزرها فسمعتُ منها بعض "البرطمة" لم أميز منها إلا "الناس أقدام.. من يوم ما شوفناه والمصايب عرفتْ سكتنا.. الواد والراجل في شهر واحد".</u>

<u>تجاوزتُ ما سمعتُ، وأيقنت أنني مُقبل على أيام مُبطنة بالأسود وأصبح عزائي الوحيد أنني سأنفرد بألطاف بعد الزواج بعيدًا عن هذه البومة التي تفننت فيما بعد في تحويل خطوبتي من أيام وردية إلى أيام كابوسية و....</u>

****

تجاوزتُ عن سموم حماتي واعتبرتُ نفسي فداء لألطاف التي أخرجتني من خانة "السنجلة المسكينة" وألقت بي في خانة "النحنحة السهتانة".

وبدأت أعراض "النحنحة" تظهر تباعًا حتى غمرتني وطفحت على السطح فتنبهت لها أمي عندما ضبطتني في وضعية جلوس غرائبية تُشبه القرود الجبلية وأنا أهاتف ألطاف:

- هابي فالنتين داي يا بيبي.

علقت أمي بصوتٍ مسموعٍ:

- يا قهرتي.. فالانطايز إيه يا مستجير.. إنت عيان!

مررت سخرية أمي من فتحة صغيرة في جهازي السمعي وأخرجتها من الجهة الأخرى، وأكملتُ مهاتفة ألطاف:

- أيوه يا بيبي.. جهزي نفسك عشان هجيلك النهاردة نقضي أحلى عيد حب.

تنهدت ألطاف:

- بحبك يا ميسو.

سمعتها فتسرسبت كلماتها داخل روحي؛ أغمضت عيني ليسيطر على حواسي طيفها وأصابني خدرٌ لذيذٌ دغدغ مشاعري وأدخلني جنةً من النشوة لم تدم طويلًا عندما سحبتني منها أمي إلى الأرض:

- بكره نقعد جمب الحيطة ونسمع الزيطة.

قالتها ومطَّت شفتيْها يمينًا ويسارًا فتجنبتُ الرد حتى لا أصاب بأي قذيفةٍ طائشةٍ قد تُغير معالم وجهي وتُفسد اليوم فانسحبتُ من أمامها وزحفتُ إلى غرفتي وكسوتُ نصفي العلوي بقميصٍ أحمر فتحوَّلت رسميًّا في لحظاتٍ إلى "ميسو النحنوح" استعدادًا للاحتفال بالفالنتين مع عصفورتي ألطاف.

انتهيتُ من مرحلة الأناقة وبدأتُ في مرحلة تجارب الأداء أمام المرآة، فوقفتُ للحظاتٍ أرسم ابتساماتٍ بلهاء أمام المرآة فدخلت أمي فجأةً:

- اتجننت يا ابني.. عوَّض عليَّا عوض الصابرين يا رب!

أكملتُ دوري الصامت في هذه المسرحية المنزلية وتركتُ أمي تضرب الكف بالكف وخرجتُ متأبطًا هدية الفالنتين ونزلتُ تتسابق خطواتي وتتراقص دقاتُ قلبي حتى وصلتُ إلى باب محبوبتي فتحسسته بأناملي وطرقتُ عليه طرقاتٍ تُشبه الهمس فاستقبلني بيومي واختطف الهدية من يدي وصرخ:

- بت يا ألطاف.. مستجير جايب لك كلب أحمر يا بت.

تأففتُ وقلتُ في سري:

- كلب لمَّا ينهش مصارينك يا بعيد.

- كلب إيه يا ولا ده؟

قالتها حماتي التي خرجت من المطبخ تفوحُ منها روائح الطبخ البصلية والتقطت "دبدوبي الأحمر الضخم" من يد بيومي، وقالت:

- يا ما جاب الغراب لأمه يا خويا.

تجاهلتُ رصاصات حماتي العزيزة، وقلتُ:

- إزيك يا ماما.. فين ألطاف؟

- بتعمل حاجة وجاية.. خش استناها في الصالون!

تدخَّل بيومي بجمجمته التي أود نسفها، وقال:

- هات جنيه وأقولك سر يا مستجير؟

أخرجتُ الجنيه فسقط اللعاب من فم هذا الجرو الصغير وانتزعه وقال:

- ألطاف بتستحمى لما عرفتْ إنك جاي، وأمي بتقولها النضافة مبتحلاش إلا لما أبو قردان بييجي.

ألقى هذه الكلمات في وجهي فهشَّمت بعضًا من كرامتي، وقلتُ لنفسي:

- بقى أنا أبو قردان يا ولية.. جتك البلا وإنتي شبه كوع الحوض!

لم يدم اشمئزازي كثيرًا وتناسيته تمامًا عندما اقتربت ألطاف تفوح منها رائحة الخوخ فخيل إليَّ أنها قطعةٌ من الجنة.. أقبلتُ عليها وفي عيني رسائل عشق لا نهائية:

- وحشتيني يا بيبي.

- وإنت كمان يا ميسو.

ثلاث كلماتٍ خرجت منها هدهدت روحي وأدخلتني جنتها، لتنتزعني النار منها عندما دخلت حماتي وفي يدها طبقٌ به شيء أجهله، وقالت:

- أهلا يا سي مستجير.. مالك لابس أحمر ليه شبه اللي عندهم حصبة!

- دمك شربات يا حاجة والله.

- وبعدين اللي يجيب هدية لحد يجيب له كلب!

- ده دبدوب يا حاجة عشان الفالانتين.

- لا يا ضنايا.. هات لها طقم حلل ولا جزمة بدل اللي اتقطعت من كتر اللف معاك في الشوارع!

قالتها ووضعت الطبق على المنضدة بصوتٍ مسموعٍ كأنها تضع الطعام مرغمةً:

- يلا عشان تاكل.

- إيه ده يا حاجة؟

قلتُها بعد أن تأملت بعض قطع مستطيلة الشكل مجهولة المصدر معدومة الملامح، فقالت:

- دي مكرونة بشاميل متكلفة خمسين جنيه من اللحم الحي.

سمعتها ألطاف فغرقت في بحرٍ من الإحراج، فأكملت أمها إخراج قاذورات فمها:

- كُل يا خويا أحسن أمك تقول إننا مجوعينك.

للحظاتٍ سيطر على حواسي أنني مُقبلٌ على تجربةٍ غذائيةٍ من نوعٍ خاص، فنطقت الشهادتين في سري والتقطتُ أول قطعة من الطبق وأدخلتها فمي عنوةً وأطبقت عليها بأسناني لأتذوق أبشع ما جادت به الطبيعة من عقابٍ للبشر فرفضها جهازي التنفسي وسدَّت حلقي فتوقف على إثرها التنفس والنطق فطقطقت حماتي أصابعها كأنها تنتظر هذه النتيجة، وقالت:

- الأكل مش عاجبك.. لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب!

ابتلعته مرغمًا لأخرس لسان حماتي التي لاحقتني بالكلام:

- وسيادتك بقى ناوي تخلص تشطيب الشقة على إمتى؟

- قريب.. قريب بإذن الله يا حاجة.

رفعت ما تيسر من قدمها ووضعتها على الأخرى وقالت:

- بص يا خويا.. أنا مبحبش كتر الطلوع والنزول والتنطيط.

نظرتُ لألطاف التي اقتربتْ من الاختفاء داخل المقعد حرجًا من قذائف أمها فأشفقتُ عليها وقلتُ لحماتي:

- دعواتك يا حاجة.. ربنا يقدرني وأعمل الحلو كله لألطاف.

تمتمت أم ألطاف بكلماتٍ مبهمةٍ وتنحنحت وقامت برفع الطبق بعد أن تفقدت قطع البشاميل التي نقصت نصف قطعة ما زالت آثارها عالقةً بأمعائي وقالت:

- هقوم أصلي المغرب وآخد العلاج وآجي أشوف حكايتك إيه يا سبع البرومبة.

سمعتها فحمدتُ ربي حمدًا كثيرًا أنني سأتخلص من هذا الجاثوم لدقائق، ودعوتُ الله أن يُطيلَ غيابها عنا، واقتربتُ من ألطاف:

- وحشتيني يا قلب قلبي.

- وإنت كمان يا حبيبي.. متزعلش من ماما هي طيبة والله.

- يعني مش شايفة بتعاملني إزاي!

- يا ميسو ماما بتخاف عليا قوي ما إنت عارف.

- عارفة.. عيد الام قرب آهه وعندي لمامتك هدية هتفرح بها قوي.

- بجد يا ميسو.. قول قول إيه الهدية؟

- خليها لوقتها.

- قول بقى يا بيبي.. إيه الهدية؟

- حاجة هتحتاجها قوي قريب بإذن الله.

- شوقتني يا حبيبي.. هتطلعها رحلة عمرة؟

- لا.. هجيب لها كفن.

ثلاثة حروف نطقت بها وتنبهت لحرارةٍ منبعثةٍ من شيءٍ ما تكاد تحرق ظهري، ولم أكد أنطق حتى وجدتُ أم ألطاف قد عكمتني من ياقة قميصي وصرخت:

- كفنوك قبل أوانك يا بعيد.. هو أنا أكبر من أمك يا روح أمك!

لا أستطيع حكي ما حدث خلال هذه الدقائق مراعاة للآداب العامة، لكني حاولتُ بكل الطرق لملمت بقايا كرامتي المبعثرة ليكمل بيومي المشهد ويختمه بإضافةٍ غايةٍ في الأهمية عندما قال لأمه:

- ماما ماما ماما.. وإنتي بتصلي مستجير كان عاوز يبوس ألطاف.

قام هذا الفسلُ بإلقاء البنزين على الحريق فأضاءت حماتي عينيْها بالأحمر وصرخت:

- باستك عقربة يا بعيد.. إنت اللي زيك مش بتاع جواز.

كانت هذه أخر كلمة سمعتها بعد أن طردتني أم ألطاف ولم تكتف بهذا لتفاجئني فور خروجي إلى الشارع بإلقاء الدبدوب الأحمر فوق رأسي من الشباك يصحبه جردل مياه من أقذر ما يكون، وكأنها تحويشة لبول بيومي من يوم مولده وحتى يومنا هذا.

عُدت إلى منزلي أتحسب رد فعل أمي التي فتحت باب الشقة نصف فتحة ورأتني على هذه الهيئة وبهذه الرائحة العفنة فأعادت إغلاقه في وجهي وسمعتها تقول:

- ما هو دي أخرتك يا شخشيخة يا مهووس يا عِرة العيال.

لا أحتاج أن أصف لكم شعوري هذه الليلة التي قضيتها في حضن دبدوبي الأحمر تحت سلم العمارة، وأنا أردد:

- الله يخرب بيت الفالانطايز.

****

لم يطق قلبي فراق ألطافه لحظاتٍ فتوسلت إلى الحاج سماحة إمام المسجد أن يأتي معي إلى حماتي بعدما رفضت أمي، وبالفعل عقدنا جلسة صلح عرفية تعهَّد فيها الحاج سماحة لحماتي أنني سألتزم بالآداب العامة إلى آخر هذا الكلام "الحُمصي".

هزَّت حماتي رأسها بعدما قالت للحاج سماحة "العرسان على قفا من يشيل بس هعديها عشان خاطرك يا مولانا".

قرأنا الفاتحة لإتمام الصلح واستأذن الشيخ فاقتربت حماتي وأقرت عددًا من القوانين التي تنصُّ عليَّ ألا تزيد مدة زيارتي لهم على ساعةٍ واحدةٍ وأن أنتهي من تجهيز الشقة سريعًا.

وافقتُ على شروطها فقامت وأحضرتْ مبخرةً فخاريةً وأغرقت المكان بالأبخرة الرمادية التي كتمتْ أنفاسي وقالت "نتكلم بقى في العفش" و.....

****

"اااه يا فلوسي يانا"....

قلتُها وأنا أتحسر على "تحويشة العمر" التي كُتب لها أن تُقدم قربانًا إلى حماتي حتى أصلَ إلى محبوبتي ألطاف. . فقد حكمت المحكمة بأن أتخلى عن منصبي كمالكٍ لهذه الأموال وصدَّقت حماتي على الحكم عندما قالت:

- عفش بنتي هختاره بنفسي.. دي حاجة العمر يا خويا.

قلتُ باستسلامٍ:

- آه طبعًا يا طنط.. أنا لو أطول أجيب لألطاف حتة من السما مش هتأخر.

انتفختْ في معقدها، وقالت:

- لا يا حبيبي.. مش عاوزين الحتة اللي من السما، بس السفرة تمن كراسي مش ستة والنيش أربعة ردفة والصالون دهب فرنساوي مش الرخيص.

واصل الصمتُ كبسَ أنفاسي، فأنهت حماتي كلماتها وقالت:

- واعمل حسابك أخويا الحاج ميمي هييجي معانا وإحنا بنجيب العفش.. ما هو لازم يكون معانا راجل أنا أخاف آخد بنتي ونروح معاك لوحدنا.

اعتصرت أعصابي وتاقت نفسي إلى أن ألقيها في أقرب ترعةٍ وأختطف ألطاف وينتهي الأمر، لكنني أجلت تنفيذ هذه الخطة وسلمت أمري إلى الله وأومأت لها موافقًا على ما خلفه لسانها من أوامر.

في الميعاد المتفق عليه وقفتُ تحت بيت ألطاف أحتضن مظروفًا ورقيا يضم أحبائي و"شقا عمري" الذي سيتبخر خلال ساعاتٍ مقابل بعض القطع

الخشبية.

بعد حوالي خمسة عشر اتصالًا نزلت حماتي ومعها ألطاف بصحبتهما رجلٌ خمسيني يرتدي قميصًا ورديا لا يتناسب مع عمره؛ يمتلك مؤخرةً كاملة الدسم جعلت هيئته قمةً في المسخرة؛ اقترب فجأة واحتضنني بحميميةٍ فتشككت في أمره بعدما قال:

- منور يا عريس يا عسل إنت.

ابتسمتُ، فقالت حماتي:

- جبت الفلوس!

أومأتُ، فسحبتني من يدي وركبنا سيارة الحاج ميمي الذي وصل بنا إلى شارعٍ أجهله به عشرات المعارض فأوقف السيارة ونزلنا جميعًا لأجد ثلاثة أشخاص اقتربوا بسرعةٍ تصل للهرولة، ظننت أنهم يُريدون الحاج ميمي في أمرٍ مُخل حتى بدأوا بالكلام في نفس اللحظة:

- البهوات يؤمروا بإيه.. عاوزين موبيليا.. سفرة ولا أنتريه؟

ابتهجتُ وحمدت الله أنه أرسل من يُساعدني، وقلتُ :

- أيوه عاوز فرش شقة كامل.

قلتُها لأجد الثلاثة رجال وقد تحوَّل كل منهم إلى محاربٍ وبدأوا في العراك:

- أنا اللي كلمته الأول.

فقال الثاني:

-هو نده لي أنا.. طلاق تلاتة اللي يتكلم فيكو هشرحه.

تدخل الثالث وقال:

- البيه كله نظر وهيراضينا كلنا لما نجيب له أحلى عفش.

انتهى الجدال والعراك عندما قام الرجل الثاني بفتح مطواةٍ ولوَّح بها في وجه زميليْه، وقال:

- اللي هيقرب من الزبون ده هقطعه.

تحت تهديد السلاح تحرَّكنا جميعًا حتى ابتعدنا عن المكان واصطحبنا الرجل الذي عرَّفني بنفسه:

- أنا الأسطى عطوة سمسار المنطقة وأعجبك قوي يا بيه.

تعجبتُ وقلتُ:

- أمال مين اللي كانوا معاك دول يا سطى؟

حكَّ أنفه بيده بطريقةٍ احترافيةٍ، وقال:

- دول شوية عيال شمامين مينفعش يتعاملوا مع البهوات النضيفة اللي زيكوا.

أعجبني نفاقُ الرجل فتأملت ملامحه السمراء وطول قامته الملحوظ كعامود الإنارة، يرتدي فانلة الثمانينيات الشهيرة ماركة "مانتجو" وبنطلونًا قماشيا مليئًا بالكسرات وحذاء أبيض اللون تحوَّل إلى السواد تدريجيًّا بعد رحلة استعمالٍ مهينةٍ.

لاحظت نظراته تخترقُ الحاج ميمي فاستشعرتُ الحرج، وقلتُ:

- هنروح على فين يا سطى عطوة؟

لم تنقطع نظراته المفضوحة لمنحنيات الحاج ميمي، وقال:

- هوديك بقى معرض فيه حاجات مودرن على كيف كيوفك.

قالها وهو يغمز على ميمي :

- هو فيه كدا يا جدعان.. ده القيامة هتقوم.

كتمتُ ضحكتي فبرز الحاج ميمي كمن ليس له أي أهمية:

- وإحنا مش هنتغدى بقى ولا إيييه؟

سمعها عطوة فسال لعابه، وقال:

- أحلامك أوامر يا بيه.

قام الأسطى عطوة بتغيير المسار وتحرَّك بالقافلة إلى مطعمٍ قريبٍ، وما إن وصلنا حتى احتلوا أكبر طاولة موجودة، وبدأ ميمي يُنادي:

- إنت يا ابني ياللي هنا.. تعالى يا حبيب قلبي قرب.

جاء الجارسون فأملاه ميمي الطلبات:

- اتنين كيلو كباب وكفتة وفرخة مشوية وطبقين محشي مشكل، ولو عندك حمام هات جوزين.

جاء الطعام وبدأت المعركة ولم تمر ربع ساعة حتى تحوَّلت الأطباق إلى أنقاضٍ بينها بعض العظام الممصوصة والضحايا المرصوصة بعشوائيةٍ، وقمتُ بدفع أكبر فاتورة في تاريخ حياتي وأنا أدعو على ميمي بالسم الهاري.

لاحظ الحاج ميمي نظراتي، فقال:

- الشاي بقى والعصير عشان نعرف نتحرك ونتفرج على الموبيليا يا عريس.

- طبعًا يا حاج.. هنشرب الشاي.

قلتها ولمحتُ ضحكةً أفلتت من ألطاف، فقلتُ لها:

- شاي ولا عصير يا حبيبتي؟

- عصير فريش.

تدخلت حماتي :

- وآنا مش في الحسبة يا سي مستجير.. هات لي سحلب.

انتهت الوليمة واصطحبنا عطوة لنبدأ زيارة معارض الموبيليا واقتربنا من معرضٍ عملاقٍ، لمحني عطوة أطيل النظر فقال:

- لا يا بيه كله إلا ده.. دول حرامية وبياكلوا بالشوكة والسكينة.. أنا هوديك لواحد حنيّن.

قالها وهو ينظر لميمي فانصرفتُ بانتباهي عنهم ولمحت لافتةً صغيرةً معلقةً على باب المعرض العملاق مكتوبًا عليها: "ممنوع دخول الوسطاء والسماسرة"، ففهمت أن عطوة رفض دخولنا هذا المعرض حتى يضمن لنفسه عمولةً محترمة.

وصل بنا عطوة إلى معرض "المفروشات السعيدة"، فتقدمتنا حماتي التي اقتحمت المكان بلا سلام ولا كلام وبدأت في تحسس المعروضات كأنها في سوقٍ لبيع الخضراوات، فاستقبلها صاحبُ المعرض:

- أوامرك يا حاجة؟

- أنا عاوزة أغلى وأحسن حاجة هنا.

- الحلو للحلوين يا ست الكل.. إحنا كلنا خدامينك.

انتشتْ وانتفش ريشها وقالت وهي تتحسس قماشة أحد الكراسي:

- الشغل ده أي كلام كدا ليه.. أنا عاوزة حاجة مودرن.

تدخل الحاج ميمي وقال لصاحب المعرض:

- هو مفيش معصرة قصب هنا.. الواحد ريقه نشف.

نادى الرجل على مساعده:

- طقم عصير للبهوات يا ابني.

مرَّت نصف ساعة وحماتي لا تنقطع عن التحسيس و"التفعيص" في المعروضات حتى ضاق الرجل، وقال:

- هو شغلنا مش عاجبك ولا إيه يا ست الكل؟

لم ترد ووجهتْ كلامها لعطوة السمسار:

- إيه المعرض المعفن ده اللي جايبنا فيه يا عم إنت.. كله شغل فلاحين!

لا أدري حقًّا كيف مرَّ الموقفُ بسلامٍ بعد أن تحوَّل صاحبُ المعرض وصرخ:

- معرض معفن مين يا ولية.. عليا الطلاق ما هبيع لك حتى لو هموت مفلس.

تدخَّل عطوة وحاول تخدير الأمور ليُحافظ على إتمام البيع:

- إهدى بس يا حاج.. المودام متقصدش.

- لا أقصد بقى.. إيه الشغل الزبالة ده.. مش هنشتري حاجة من هنا.. يلا يا ميمي.

لم تُكمل جملتها لأن صاحب المعرض أقسم بأغلظ الأيمان إن لم نغادر المكان خلال دقيقةٍ سيدفنها حية في مكانها؛ تمنيت ودعوتُ الله أن يُنفذ تهديده فلم يستجب وخرجنا سالمين وانسابت دموعُ ألطاف فحاولتُ تهدئتها.

اقترب الحاج ميمي وكأنه سيدلي بسرٍّ خطيرٍ، وقال لي:

- برضه معرفناش مكان معصرة القصب!

لم أجد ردًّا مناسبًا على ميمي فأثرت الصمت، واقترب عطوة من حماتي يتودد إليها:

- يا حاجة خير.. روقي إنتي بس وهنروح معرض تاني فيه شغل يعجبك.

- لا شغل حلو ولا غيره.. عليا الطلاق ما هشتري حاجة وإنت معانا يا وش الفقر.

بعد أن أقسمت حماتي بالطلاق لم تجد إلا رد الفعل المناسب من عطوة الذي لوَّح بمطوته في وجوهنا وهو يصرخ في منتصف الشارع:

- عرقي وهاخده فوري.. مش عطوة اللي يتاكل عرقه يا شوية ديوك.

قالها وانقضَّ على ميمي وقيَّده بقبضته:

- وهدبح لكوا الفرخة البيضا دي كمان.

أطلقت حماتي صوتها فتجمَّع المارة وتم الحكم بأن أدفع مائة جنيه ترضية لعطوة كبدل للعطلة معنا طوال اليوم.

حاولتُ التقاط أنفاسي بعد أن مشى عطوة إلى حال سبيله وعدَّلنا من هندامنا بعد هذا اليوم العصيب، وقام الحاج ميمي يتبختر كالبطة، فسألته حماتي:

- رايح فين يا ميمي؟

- هجيب علبة عصير من السوبر ماركت اللي هناك ده.

لم يستطع ميمي الوصول للسوبر ماركت بعد أن سقط في بالوعة صرف صحي عمومية مكشوفة قبل أن ينتشله بعضُ عمال البلدية وبين أسنانه قرموط بلدي يلوح بعلامة النصر.

****

استعادت حماتي جبروتها بعد انتشال ميمي، وجلسنا لمدة نصف ساعة على مقهى قريب حتى تجف ملابسه، استعدت للرحيل بعدما حددت موعدًا آخر لشراء الموبيليا.

وهذه المرة حدثت المعجزة وتم الشراء بعدما اقترب البائعُ من الانتحار واقتربتُ أنا

من بلع لساني بعدما نفد مخزوني النقدي تمامًا.

وفي طريق العودة تذكرتْ حماتي أنها لم تشتر "حزامة" و"ترابيزة متحركة للشاي"، وتذكرت أيضًا أنها تحتاج إلى سرير إضافي للأخ بيومي بعدما نجح بفضل الله في دغدغة سريره.

بالطبع حاولتُ تجاهل ما سمعتُ فأكدت حماتي ما قالت عندما أخبرتني صراحة "تعمل حسابك في فلوس عشان فيه واصلة تانية بكرة يا خويا".

كتمتُ ما شعرتُ به بداخلي وقررتُ اغتيال هذه الجثة بعد إتمام كتب الكتاب مباشرةً، وتذكرت مصيبتي الأخرى عندما.....

****

ذهبتُ لمباشرة عمل الأسطى رضا النقاش الذي ابتلاني الله به ليُنهي لي أعمال النقاشة في الشقة.

فبعد عشرات المواعيد الوهمية وقوائم الطلبات التي لا تنتهي، وبعد ملحمة رجاء وتوسل أعطاني الأسطى رضا موعدًا مبدئيًّا ليُنهي المرحلة الأولى من عمله.

وصلتُ، ويا ليتني فقدتُ بصري قبل أن أصل، عندما وجدت الأسطى رضا يُشعل وابوره الخاص ليُعد كوبًا من الشاي بعدما صبغ الصالة باللون الأحمر وحوَّلها إلى قطعةٍ من جهنم، فاقتربتُ من الإصابة بانهيارٍ عصبي وصرختُ:

- إيه الهباب ده يا سطى رضا؟

ببرود الثلج قال:

- وعليكم السلام يا بيه.. فيه حاجة اسمها سامو عليكو.

أوشكتُ على الانفجار الفعلي:

- إيه الزفت اللي إنت عامله ف الصالة ده يا سطى؟

ابتعد رضا خطواتٍ، وسكت لحظاتٍ كأنه تذكر شيئًا ما، وقال بثقةٍ:

- اااااااااااااااااه.. يا بيه ما هو كلها ألوان.. ده حتى الأحمر مبيبانش فيه الوساخة.

كنتُ على وشك ارتكاب جريمة قتل عندما قام الأسطى رضا بطلاء نصف الصالة بلون الدم بعد أن نسى تخفيف اللون الأحمر بعدما اتفقنا على طلاء الصالة بلون "الروز" الفاتح.

لم يكتف رضا بمصيبته وشرع في إقناعي بها عندما قال:

- يا بيه ارضى بقسمة ربنا.. ده رزقك.

- رزق إيه يا سطى.. إنت هتجنني!

- يا بيه هو إحنا هنتخلد ف الدنيا.. أهي أيام وبنعيشها.. مش هتفرق أحمر من روز.

سيطرتْ على عقلى فكرة التخلص من هذا الكائن الغبي الذي أكمل تخريفه وقال:

- تصدق بالله يا بيه.. لسه مشطب شقة لعريس من شهرين ومات بعد الفرح بيومين.

تخمَّرت الفكرة برأسي وكدت أخنقه فأنقذه رنينُ هاتفي الذي التقطته فوجدت المتصل حماتي فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وانتظرت حتى أكملت الرنين واتصلتُ بها فبدأت بالكلام:

- اعمل حسابك هنيجي نشوف دهانات الشقة بكره.

توقفت الكلماتُ في حلقي وأومأتُ كأنها تراني فأكملتُ:

- الساعة خمسة تكون واقف تحت البيت.

قالتها وأنهت المكالمة، فالتفت للأسطى رضا الذي أشعل سيجارةً ووقف يتأملني وقال لي بهدوءٍ مستفزٍّ:

- ما تشوف لنا حاجة نشربها يا بيه.. هو إحنا شغالين في صحرا!

انفجرتُ في وجهه وقلتُ:

- يا عم شوف لنا حل الأول في المصيبة دي.

نظر إلى السقف وضيَّق عينيْه، وقال بلهجة أستاذ جامعي:

- دي لازمها بالصلاه على النبي إزازتين سيكا.

قالها واستشعر غبائي، فأكمل:

تترش كل يوم بعد المغرب وهتلاقي الأحمر بعد أسبوع اتحلل.

كمن وجد طوق النجاة قلتُ:

- ودي تتجاب منين وبكام يا عم رضا؟

بتعالٍ ارتشف من كوب الشاي بصوتٍ مسموعٍ، وأجاب:

- محدش يعرف يجيبهولك إلا العبد لله.. إيدك على 300 جنيه.

أعطيته ما طلب على وعد أن يأتيني بعبوات "السيكا" السحرية التي اتفقنا أن أخففها وأرشها على الحائط بنفسي لمدة أسبوع حتى يتحلل اللون الأحمر.

وفي اليوم التالي هرولتُ إلى الأسطى رضا الذي أعطاني زجاجةً صغيرةً بنية

اللون عليها ورقة صغيرة مكتوبة بخط رديء حاولت قراءتها "إنتاج الأسطى رضا الغمراوي.. بوهيجي ومهندس داكور".

سألتُ رضا:

- هو إنت اللي عاملها يا سطى رضا؟

أجاب بفخرٍ:

- واللي خلق الخلق ما حد يعرف يعمل التركيبات دي غير العبد لله.

قالها ثم شد على يدي وأكمل:

- حافظ عليها يا بيه.. دي مبتطلعش إلا للحبايب والله.

كمن عثر على قطعة ألماظ كنتُ أنا عندما احتضنت الزجاجة وغلفتها جيدًا بثلاثة أكياس وواظبت على ما قاله الأسطى رضا يوميًّا.

كدتُ أتقيئ عندما تسللتْ إلى أنفي رائحة السيكا التي تُشبه رائحة شيءٍ ما، لكني نفضتُ الفكرة عن رأسي وتذكرتُ موعدي مع حماتي فأغلقتُ الشقة بعد انصراف الأسطى رضا، وفي تمام الخامسة أعطيتُ لحماتي تمام الحضور تحت المنزل.

تدافعت دقاتُ قلبي وتكركبت أمعائي تحسبًا لرد فعل حماتي عندما تقع عيناها على لون الطلاء المُخالف لما أمرتْ به؛ وبالفعل حدث أكثر مما كنتُ أتوقع منها عندما رأت الصالة الحمراء فصرختْ:

- أحمر.. إنت هتسكن بنتي ف سلخانة!

حاولتُ تهدئتها، وقلتُ:

- يا حاجة دي غلطة وهتتصلح.

أكملتْ وكأنها لم تسمعني:

- بقى دي الألوان اللي إحنا متفقين عليها.. ما تنطق!

بصعوبةٍ شديدةٍ شرحتُ لها الموقف، وأن كل ما حدث مجرد خطأ قام به الأسطى رضا، فقالت بعد أن لوت شفتيْها يمينًا ويسارًا:

- ما هو مستهيفك وشايفك مش مالي عينه.

حاولتُ تجاهل الإهانة واعتبرتها لم تكن، فأكملتْ:

- الناس خيبتها السبت والحد وإنت خيبتك ما وردت على حد.

التزمتُ الصمت حتى لا ألقي بها من أقرب نافذة، فتأففت وقالت:

- وإيه ريحة العفانة دي.. هو أنا دخلتْ مبولة!

آثارت كلماتُ حماتي آحاسيسي السابقة، فقلتُ:

- دي ريحة السيكا يا حماتي.

هزَّت رأسها وقالت:

- طب وريني بقى السيكا دي بقى يا شملول.

أحضرتُ لها الزجاجة الثمينة وأخرجتها من اللفافات فالتقطتها حماتي وفجَّرت في وجهي قنبلةً حولت خلايا رأسي إلى أشلاء عندما قربت الزجاجة من أنفها:

- إنت بتتمهزأ بيا يا روح أمك يا مُقرف.

قالتها وألقت بالزجاجة في وجهي فالتقطتها وغمستُ إصبعي في السائل وقربته من أنفي فوجدت الزجاجة تحتوي على بول بشري مُعتق.

تسمَّرت قدمي ولم ينقطع القيء عن فمي وشعرتُ أنني كتلةٌ متحركةٌ من العبط بعدما باع لي رضا النقاش أغلى زجاجة بول بشري في التاريخ!

قضيتُ ليلتي كالسمكة التي تتقلبُ على لهب الفرن، أود لو أنتزع أمعاء رضا النقاش بيدي، وقررتُ أن أنتزعه فعليا من دنيا الأحياء إن رزقه الله بحياةٍ في صباح اليوم التالي.

وكأن الله أراد أن يشفي غليلي ويبرد نار قلبي ورزقني بفكرةٍ استغرق تنفيذها ليلةً كاملةً ولم أنم حتى جاء الصباحُ فتوجهتُ إلى الشقة وفي يدي زجاجة عصير مملوءة بسائل "السيكا المستجيرية" التي جادت بها مثانتي هذه الليلة وعلى وجهي ابتسامةٌ واسعةٌ عندما وجدتُ الأسطى رضا الذي قال بوداعةٍ:

- اعمل حسابك يا بيه.. هتحتاج إزازة سيكا تانية عشان اللون يظبط معاك.

قلتُ ببراءة الذئب:

- إحنا خدامينك يا عم رضا والله.

قلتُها وتعمدت أن يرى زجاجة العصير المُستجيري التي أُعدت خصيصًا لتروي الأسطى رضا.

وقفتُ أمامه مباشرةً قابضًا على الزجاجة قبضةً مائعةً فأوشكت على الإفلات من يدي قبل أن يبتلع الأسطى رضا الطعم فاختطفها من يدي وقال:

- يا أخي يعني معاك عصير ومبتعزمش عليا.

قالها ورفع الزجاجة وسكبها في حلقه دفعةً واحدةً، فجحظت عيناه وانقلبت محتوياتُ جهازه الهضمي على الأرض، وطارت من بين شفتيه كلماتٌ وولولاتٌ هيروغليفية غالبًا قبل أن ألقي به خارج الشقة لينزلق كالبرميل إلى الشارع تصحبه لعناتي وسيكتي المستجيرية الخاصة جدًّا.

****

لم تستر حماتي خيبتي وتولت مهام نشر فضيحة السيكا لكل مَن تعرفه ومَن لا تعرفه، وكأنها تريد أن تُثبت للعالم أن هناك بطلًا جديدًا حصل على جائزة الدولة التقديرية في العبط.

تعاملتُ معها بمنطق "عندما يتحكم النذل"، وتجاوزت ما حدث وجئتُ بنقاشٍ آخر ليُعيد طلاء الشقة وتفرغتُ تمامًا لمتابعته فحوَّلني من صاحب الشقة إلى "صبي لسيادته" بعدما أمرني بصنع الشاي مغلي وليس "كشري" ليضبط مزاج سيادته.

استدنت من القاصي والداني، وقبَّلت الأيدي والأرجل حتى تتم هذه الزيجة، واقتربتُ من صنع "عجين الفلاحة" إلى حماتي حتى توافق على إتمام "كتب الكتاب" التي أقسمت بالطلاق ألا يتم إلا قبل الفرح بأيامٍ، وقد كان.

كاد قلبي أن يتوقفَ بعدما انتهيتُ من البصمة الأخيرة في دفتر المأذون الذي دخلتُ من خلاله الزنزانة الذهبية و.....

****

"الليلة ليلة هنا وسرور والكوبايات في صواني بتدور تراتتاراتتا"

اتصلتْ هذه الكلماتُ الراقصةُ بلساني في هذا اليوم الذي تحوَّلت فيه الدنيا أمامي إلى كيانٍ جميلٍ رقيقٍ تتحقق فيه الأحلامُ التي كنتُ أظنها لن تتحقق، فاليوم حفلُ زفافي على ربة الصون والعفاف: ألطاف رمضان عجيلة.

أمام قاعة الزفاف نزلتُ من السيارة بصحبة ملاكي الرقيق في كامل رجولتي وهيبتي، فالتقطني ثلاثةٌ من شياطين الإنس وفي لحظاتٍ قال رابعهم:

- شقلبوه، ومرجحوه، ورقَّصوه.

ترجرجتْ أمعائي وتطايرتْ أطرافي عندما رفعوني إلى أعلى، وشاركهم في هذا الواجب كل مَن تصادف مروره أمام قاعة الزفاف وكأنه مولد "أم زغلول"، فصرختُ عندما أخطأ أحدهم وطالتني يداه بحركةٍ غير مقصودةٍ تشككتُ بعدها من قيامي بمهامي كاملة في ليلة العمر.

انتهتْ المعركةُ وانتصبتْ قامتي، وعلى يميني ألطاف التي تجمَّعت حولها صديقاتها وقد اكتست كل واحدةٍ بما جاد به الحبلُ من ضيّقٍ ولامعٍ، وما يُبرز المنحنياتِ لتنجح هذه الليلة في "شنكلة" ثلاثة مغفلين على أقل تقدير.

وفي غفلةٍ وجدتني كعُود القصب المحشور في فم المعصرة عندما تشكلت حولي دوائر بشرية راقصة أجبرتني على الهز والتقسيم، بعدما قال الدي جي:

- العريس بقى يقسم لنا على واحدة ونص.. هزِّ يا عريس!

- والله ما بعرف يا عم... والله ما بعرف يا جدعان.

وكأنه لا حياة لمن أنادي، فقلتُ لنفسي:

- يا خسارة فلوسك يا مستجير.. دفعتها عشان تهز شمال يمين وشمال.

ولبضع دقائق أعتقني هذا الفسلُ واتجه إلى العروس وصديقاتها، فاقتحمت حماتي مجال عمله فجأةً واختطفتْ مُكبر الصوت:

- بت يا ألطاف.. ارقصي يا بت!

انتقلت العدوى إلى كل مؤنثٍ في المكان، فتحوَّلت القاعة إلى وعاءٍ كبيرٍ من الدهون الراقصة، وتوسطتها كتلةٌ ضخمةٌ تعدَّى وزنها ثلاثة أطنان وظلت تنشرُ أعضاءها في كل فراغٍ، فاقتحم الحاج ميمي المجال وأراد أن يُجاملٍ بهز "لظاليله ووظاويظه"، واشتدت المنافسة الدهنية فاندمج الحاج ميمي تمامًا حتى نال ما يستحقه عندما انزلقت قدمُه وسقط فجأةً فتجمهر الشبابُ وعلت الصيحاتُ:

- العِجل وقع.. هاتوا السكاكيييييين!

تعالت ضحكاتُ الحضور وبدأ الغمز والهمس حتى قام الدي جي بتشغيل أغنيةٍ هادئةٍ، وقال:

- العروسين معانا بقى ونرقص أحلى سلو.

تقدَّمتُ ومعي ألطاف واقتربت منها ولا أدري ماذا يجب أن أقول في هذه اللحظات فقلتُ لها:

- بحبك.

اقتربتْ ألطاف فتوقعت أن تطبعَ قُبلةً على خدِّي، لكنها قالت:

- مستجير.. عاوزة أستفرغ!

- أفندم؟

- واكلة كشري وعاملي حمو يا حبيبي.

- هي ليلة باينة من أولها.. حسبي الله ونعم الوكيل.

انتهت الرقصةُ فتقدمتْ حماتي ووقفتْ أمام ألطاف وفردتْ أصابعها الخمسة أمام عيون الحاضرين، وقالت:

- النهاردة الخميس وخمسة في عين اللي ما يصلي ع النبي.

جاء وقتُ توزيع الحلوى والعصائر، فرأيت ما لم يحدث في مجاعاتِ الصومال.

فهذه سيدةٌ طويلةٌ ترتدي "تايير مشجر" جنَّدت نفسها ورافقت الفتى الذي يقومُ بتوزيع قطع الجاتوه والحلوى على الحضور فالتصقت به لتعبئ كل ما تطوله يداها في كيسٍ أسود.

وهذه الأخرى التي اقتربت واحتضنت ألطاف، وبدون سابق إنذار احتضنتني فعرَّفتني بها ألطاف:

- طنط زوزو جارتنا يا مستجير.

- أهلا وسهلا يا طنط زوزو.

- مبروك يا عريس.. هستئذن أنا بقى.. ما هو العروسة للعريس والجري للمتاعيس.

قالتها "طنط زوزو" وأطلقت ضحكةً رقيعةً فلعنتها في سري، ثم اقتربت السيدة ذات "التايير المشجر" واحتضنت ألطاف ويدها ملوثةٌ ببقايا الجاتوه والشيكولاته وقالت لي:

- ألف مبروك يا عريس.. والنبي ما دوقنا الجاتوه ولا حتى العيال شافوه.

وما هي إلا دقائق وتسرسب كل من في القاعة تباعًا بعدما انتهى توزيعُ الحلوى والمأكولات وامتلأت الكروش وتثاقلت الأنفاسُ فتحركنا من القاعة لأجد حماتي تقفُ عند باب السيارة تُودع ألطاف التي انطلقتُ بها وتسبقني فرحة قلبي.

تصاعد منسوبُ الفرحة بداخلي ولم يُشتته سوى نظرات ألطاف التي أيقنتُ أنها تُخبئ خلفها شيئًا ما، فقلتُ لها:

- ما لك يا حبيبتي؟

- لا يا حبيبى.. متقلقش.. كله خير.

طبعتُ قُبلةً رقيقةً على يدها واستأذنتها لأدخل الحمَّام فسبقني التسرعُ والأحلامُ الوردية.

تحررت المياه من الصنبور وتحرَّر معها صراخي عندما لمستْ جسدي العاري الذي تحوَّل إلى جلدٍ محروقٍ ولحمٍ مسلوقٍ بعد أن فتحتُ مياه السخان فقط، فتحاملتُ على نفسي وتجاوزتُ ما حدث واستعدتُ في مخيلتي كل الدروس الثقافية التي تطوَّع معارفي المتزوجون بتلقيني إياها.

انتهيتُ من هذا الحمَّام العجيبِ وخرجتُ لأجد ألطاف تجلسُ في أحد الأركان على كرسي صغيرٍ، فاقتربتُ منها:

- ما تغيري هدومك بقى يا حبيبتي.

- مش هينفع يا مستجير.

- نعمين يا حاجة.

- مستجير.. بصراحة آنا ظروفي مش هتسمح بحاجة خالص الليلة دي.

سمعتُها فكبستُ أسناني وحبستُ الكلماتِ داخل حلقي، وحاولتُ تهدئة الأمر فقلتُ:

- ولا يهمك يا روح قلبي.

قلتُها وأنا ألعن حظي الأزرق الذي ألقاني ليلة دخلتي بين الجاموس والأبقار في لعبةِ المزرعة السعيدة حتى تمر الليلة قبل أن أُصاب بسكتةٍ قلبيةٍ مؤكدةٍ.

مرَّت الليلة كالدهر، ولم يُوقظني سوى جرس الباب في التاسعة صباحًا لأجدها حماتي التي دخلتْ تسبقها زغاريدها، وانفردتْ بألطاف قرابة نصف الساعة في غرفةٍ أحكمت إغلاقها عليها، ثم خرجت وعلى وجهها ثلاثة كلاب تتعارك، وقالت لي:

- منور يا سبع البرومبة.. يا خسارتك يا رجولة!

قلتُ بعدم فهمٍ:

- خير يا حاجة.. حصل إيه؟

لطمت صدرها وشهقت، وقالت:

- وقال مستعجل على معاد الفرح يا خويا.. يا ميلة بختك يا بنتي..

قالتها وأحرقتني بنظراتٍ شعرتُ معها أنها تتهم رجولتي بشيءٍ ما، فقلتُ بنفادِ صبرٍ:

- قصدك إيه يا حاجة؟

- ولا قصدي ولا مقصديش يا خويا.. لما إنت كدا بتتجوز بنات الناس ليه؟!

قالتها وتركت الأسئلة تحرقني وغادرت بلا كلامٍ، فدخلتُ لألطاف التي حاولت تمثيل النوم فأيقظتها وقلتُ:

- طبعًا سمعتي كلام أمك.

تلعثمتْ وقالت:

- حصل إيه بس يا حبيبي؟!

زدت من حدة الكلام، وقلتُ:

- من غير لف ولا دوران، عاوز أعرف إنتي قولتي لأمك إيه عني؟

تأتأتْ وانحبس الدم في عروقها، وقالت:

- أنا.. أنا.. بصراحة يعني كدا....

- ها.... بصراحة إيه؟

- إوعدني إنك مش هتزعل..
- انطقي يا ألطاف!
- مستجير، أنا قلتلك كدا إمبارح عشان كنت خايفة.
- وبعدين؟
- وبصراحة.. بصراحة يعني أ.. أ.. ل.. لما..
- بصراحة إيه.. اشجيني!
- لما ماما جتْ خُفت أقولها وكدا..
- ها.. أمال قولتي لها إيه بقى؟
- قلت لها إنك نمت ومحصلش وبس.

قالتها واختبأتْ تحت الأغطيةِ وبين الوسائد فتذرعتُ بسلاح الصمت حتى لا أنفجر في وجهها، وتذكرت نظرات حماتي وكلامها المسموم الذي نال من رجولتي.

ولم تنطفئ نارُ الغضب التي تأججتْ إلا عندما انتهيتُ من لعب مرحلة من "المزرعة السعيدة"، وانتقلتُ مع ألطاف إلى لعبة "عريس وعروسة".

لم يمر اليوم كما السابق بعدما تحوَّلت إلى "اللمبي" في ليلة دُخلته، وأمضيتُ ليلةً أسطوريةً سيدونها التاريخ البشري .

انتهيتُ ولم ينتهِ عقلي من التفكير بعدما قررتُ مفاجأة ألطاف بشيءٍ ما، عندما اقتربتُ منها بحنانٍ، وقلتُ:

- ألف مبروك علينا يا ملاك عمري.

استكانتْ، وقالت:

- مش زعلان مني يا حبيبي؟
- لا طبعًا يا روح روحي.. بس..
- بس إيه يا حياتي؟
- ألطاف بصراحة أنا كنت مخبي عليكي حاجة.
- قول يا مستجير قلقتني!
- بصي هو كل حاجة ولها علاج.. وأكيد ربنا هيكرمنا ونتعالج منها سوا.
- مالك يا مستجير.. قول حرام عليك!
- هو مبقاش مالي لوحدي يا ألطاف للأسف.

- مستجير، آبوس إيدك انطق.

- ألطاف، بصراحة أنا عندي إيدز.

قلتُها ولم أستطع بعدها إيقاف صراخ ألطاف التي لطمتْ وقذفتني بكل ما طالته يداها حتى فقدت الوعي.

****

انسحبت الدماء من وجهي عندما رأيتُ ألطاف ممددةً على الأرض، وتلاعب الخوفُ بأعصابي فلم أجد أمامي إلا وعاء ممتلئًا بالماء المثلج ففعلتُ كما يحدث في الأفلام وأغرقتها بالماء، فانتفضت وارتجفت وعادت إلى صراخها بعدما غرست أظفارها في صدري.

أقسمتُ لها بكل الأديان السماوية أنني كاذبٌ وملعونٌ وأستحق الرشق بالأحذية، فانتهت من مرحلة الخربشة وبدأت في مرحلة العض إلى أن استكانت على صدري بوداعةٍ.

افتتحنا أول أيام العسل بهذا الجنون الذي استمر عندما قمتُ بدور مهرج وسلحفاةٍ وشمبانزي حتى تسمح لي ألطاف باختطاف قُبلةٍ، فطارت كالعصفورة ولاحقتها كصيادٍ ماهرٍ حتى سقطت في شباكي وغرقنا معًا في بحر العسل و....

****

(لا أُصدق أن الزواج شيءٌ رائعٌ إلى هذا الحد، ها هي ذي زوجتي النائمة بجواري تُشبه ملائكة السعادة، تُرفرف في سماء روحي فتنثر فيها لآلِئ البهجة.

ستة أيامٍ رحلتْ كنتُ فيها هارون الرشيد، وباستيقاظ ألطاف سنقومُ بتدشين اليوم السابع لزواجنا؛ سأقوم بتجهيز الإفطار وإحضاره إلى السرير ومفاجأة ألطاف كرجل "جنتل مان").

دار بخلدي هذا الخاطرُ فانتشيتُ وأنا أقومُ بسلق البيض ورصّ شرائح الجبن الرومي على طبقٍ مُزينٍ بنقوشٍ بديعةٍ أضافت إلى بهجتي بهجةً قطعها صوتُ صراخٍ قذفني إلى غرفة النوم لأجد ألطاف تقفُ فوق السرير ترتجف فقلتُ:

- ما لك يا حبيبتي اهدي اهدي!

قالت وهي تقتربُ من الإغماء بصراخٍ هيستيري:

- الحقني يا مُستجير، صرصاااااااااااااار بيطير!

قفزتُ كطرزان وخلعتُ "الشبشب" لأنهي حياة هذا الصرصار الغاشم الذي هدَّد أمن وليفتي ألطاف.
لم يستسلم الخَصْم بسهولةٍ بعدما استشعر الهجومَ فزادت ثورته وطار في كل الاتجاهات ليعلو صراخُ ألطاف وهي تُمسك بالوسادة كساترٍ ضد هجوم العدو.

نجحتُ في القضاء على العدو، ولم أنجح في تهدئة ألطاف التي زاد صراخُها وهي تقول:

- متأكد إنك قتلته يا مُستجير.. أحسن يصحى تاني ويطير عليا.

كدتُ أتوسلُ إليها لتهدأ، ولكن صوت جرس الباب تدخَّل وأنهى الموقف، فقلتُ:

- هيكون مين جاي دلوقت، الساعة لسه واحدة الضهر!

- تلاقيها ماما جاية تجهز معايا التحية اللي هنقدمها لخالتي اللي هتجيلنا آخر النهار عشان السبوع.

- طب إلبسي حاجة وأنا هخرج أفتح!

خرجتُ لأفتحَ الباب فوجدتُ رجلًا وامرأتيْن وطفلًا؛ أعتقد أنني رأيتهم من قبل؛ نعم.. هذه السيدة التي ترتدي "تايير مشجر" هي التي لمحتها في حفل زفافي وهي تُعبئ قطع الجاتوه في كيسٍ أسود اللون وتُعطيها لهذا الرجل.

نعم.. لم أنس هذا الرجل بقميصه المقلم والجرافات والبنطلون الجينز والحزام الجلدي الذي تتوسطه توكة على هيئة جمجمة وهذا الحذاء المنقرض.

مرَّت نصف دقيقة من الصمت قطعتها السيدة التي سرقت الجاتوه بزغرودةٍ غجريةٍ ودخلت من تلقاء نفسها، وقالت:
- خش يا راجل.. تعالي يا بت يا رزقة.. يا ألف نهار أبيض يا عرسان.

خرجتْ ألطاف على صوت هذه الدبابة البشرية فتقدمت واحتضنتها، وقالتْ:

- ألف مبروك يا بنت أختي.. طبعًا إحنا مش ضيوف عشان ناخد معاد.

نظرتُ إلى ألطاف التي تداركت الموقف وابتسمت، وقالت:

- ربنا يبارك فيكي يا خالتو.. اتفضلوا في الصالون!

دخلنا إلى الصالون جميعًا، فبدأ الرجلُ بالكلام:

- محسوبك عوف أبو النضر، جوز خالة ألطاف، سواق ميكروباص بس أعجبك يعني.

- تشرفنا يا سطى عوف.

قلتُها وأنا أتعجب من ابتسامته التي أبرزت أخاديد وجهه وأسنانه منتهية الصلاحية، فاقترب من أذني وقال:

- بالراحة شوية يا عريس.. الصوت كان واصل لآخر الشارع!

تذكرت صراخ ألطاف لحظة هجوم الصرصار فابتسمتُ ولم أعلق على كلام الأسطى عوف الذي أخرج شيئًا ما ملفوفًا في ورقة نتيجة ودسَّها في يدي، وغمز لي وقال:

- جرَّب دي وادعيلي!

تداخلت الأصواتُ ما بين خالة ألطاف بصوتها الذي يُشبه حوادث السيارات وطفلها الذي بدأ بالزن يرجوها لكي يذهب إلى الحمام وصوت الأسطي عوف، وفجأة قامت الخالة المدعوة زوبة وقالت لألطاف:

- تعالي يا لولو فرجينا على الحاجات بقى والمحتاجات.

قالتها وهي تجذب ابنتها من ذراعها:

- تعالي يا بت يا رزقة اتفرجي على فرش العروسة يمكن ربنا يرزقك زيها بعريس

طول بعرض كدا زي الجدع.

أنهت جملتها وابتسمت بلزوجةٍ، وقالت لي:

- شايف يا عريس بنتي زي القمر إزاي.. لو عندك صاحبك ولا أخوك مش هوصيك بقى.

- آه إن شاء الله يا حاجة.

خرجنا جميعًا من الصالون، ودخلت ألطاف مع زوبة ورزقة إلى غرفة النوم ولا أدري ما الحكمة من إصرارها على رؤية خصوصياتنا.

انفرد بأذني الأسطى عوف الذي لم ينقطع لسانُه عن الكلام، فدققت النظر إلى عينيْه اللتين لاحظت أنهما لا تعملان بكفاءةٍ حيث تتجه نظراته إلى شخصٍ ما مجهولٍ، وهو يقول:

- إحنا بقى بالصلاة على النبي سواقين طيارات.. بس بنسوق الميكروباص ده عشان أكل العيش مُر، بس عارف يا عم مستجير بقى إنت لازم تاخد مني خبرة الحياة.. إنت لسه عريس وداخل دنيا جديد.. المرة من دول لازم تدبح لها القطة وتكون شديد معاها.. آه.. أمال إيه.

ظللت لمدة نصف ساعة أنصت إلى حِكَمِ الأسطى عوف، حتى سمعنا نداء زوبة من الداخل:

- يا عووووووف.. تعالى يا راجل شوف كدا!

- إيه يا ولية.. عاوزه إيه؟

لم تنتظره زوبة ليدخل وخرجت وهي تمسك قطعةً من ملابسي الداخلية، وقالت:

- شايف يا راجل اللباس ده من الخامة الحلوة النضيفة.. والنبي ومقاسك.

قالتها وهي تنظر لي، فقلتُ لها:

- خديه هدية للأسطى عوف يا ست زوبة.

انشرحت وابتسمت حتى انبعج لُغدها، وقالت:

- يخليك لخالتك زوبة يا أمير يا ابن الأُمرا.

قالتها وعاودت الدخول إلى غرفة النوم وخرجت ومعها زوجان من الغيارات الداخلية ووضعتها في كيسٍ أسود وأعطته لزوجها، وقالت له:

- خد يا راجل بدل اللبسة المقطعة بتاعتك.

دفن الأسطى عوف الكيس بجانبه، وأبرز كيسًا آخر ولكنه ورقي به لب وفول سوداني، وقال لي:

- قزقز يا عريس..المكسرات بتعمل شغل عالي قوي.

تمدد الأسطى عوف على السجادة وأشعل سيجارته بعد أن انتهى من كيس اللب وتحوَّلت الصالة إلى صندوقٍ عمومي للقمامة.

خرجوا من غرفة النوم ورأيتُ الآنسة المصونة رزقة عوف تحمل علبة مكياج وقد وضعتها في كيسٍ أسود، أما الطفل الصغير فكان نصيبه من الغنيمة لعبة بلاستيك كنتُ قد اشتريتها كـ"أنتيك" في غرفة الأطفال ووضعها في كيسٍ أسود مماثلٍ، وأخيرًا السيدة الفاضلة زوبة التي اختارت تشكيلةً رائعةً من أواني المطبخ وبعض قمصان النوم، والتفتت لألطاف وقالت:

- وأمك اللي كانت بتقول إنها مش جايبالك حاجات كتير.. أختي وأنا عارفاها بتخاف م العين.

تأملت ما يحدث حولي ووجدتني ضحية عملية سطو منظم وهذه العصابة ستقتلع بلاط الشقة بعد لحظات.

أعاد طفلهم الصراخ:

- ماما ماما ماما ماما عاوز أشرب.

ردت الأم بتلقائيةٍ :

- خش يا واد هات.. التلاجة جوه في المطبخ.

دخل الطفل وعاود الصياح:

- ماما ماما.. فيه موز وفراولة في التلاجة.

ردَّت زوبة بنفس التلقائية:

- هاتهم يا واد.. ده بيت بنت أختي يعني بيتنا.

قالتها ونظرت لي:

- مش كدا يا عريس ولا إيه.. ده إحنا أهل.

خرج الطفل وهو يحملُ طبق الفراولة والموز فاستقبلته زوبة استقبال الفاتحين:

- يا اختي حبيب عين أمه.. تعالى يا نور عيني.

امتد هذا الاحتلال حتى العاشرة ليلًا؛ وشاركونا الوجبات والتسالي والتحالي، وقام الأسطى عوف بمشاهدة مباراة الزمالك والإسماعيلي وتبعته زوبة بمشاهدة المسلسل الهندي، ثم قامت لتدخلَ الحمَّام وجاء صوتُها من الداخل:

- يا ألطاف.. الصابون بتاعكم حلو قوي.. هاخد الصابونة دي.

قالتها وهي تخرج من الحمَّام وتضع الصابونة في الجيب الجانبي للتايير، واتجهت إلى عوف الذي غلبه النعاس فخلع بنطلونه ونام بملابسه الداخلية التي تحوَّل لونها من الأبيض إلى الأصفر، فقامت بالتقاط البنطلون واغتصبت الجيب وأخرجت ما به من بنكنوت؛ فوجدت ورقةً من فئة الخمسة جنيهات وأخرى من فئة العشرة جنيهات.

طوت الورقتيْن واقتربت من ألطاف وقالت لها:

- نقوطك يا ضنايا.. عقبال ما ترديه في جواز رزقة.

انتهى الأسطى عوف من تعسيلته فقام ونادى على زوبة لتلبسه بنطلونه بعد أن بصق على السجادة، وعندما لاحظ أني رأيته قال لي:

- معلش بقى يا عريس.. الطبع غلاب!

حاولتُ أن أقبض على صبري لبضع دقائق أخرى، فتنحنحت زوبة وقالت:

- يلا بقى يا عوف عشان نسيب العرسان على راحتهم.. طولنا عليهم كدا.

تدخلتُ وقلتُ:

- أنزل أجيب لك عربية ربع نقل عشان تحمل عليها الأكياس دي يا سطى عوف.

- لا يا عريس..هو أنا قليل الذوق عشان أنزلك وإنت عريس.. أنا معايا الميكروباص بتاعي تحت.

- طب معلش يا سطى عوف هستئذنكم دقيقة بس.

قلتها وغبتُ دقائق وعدتُ لهم؛ فودعونا وخرجوا يحملون من الغنائم ما يكفي قبيلةً ولكن ما حدث بعدها لم تفهمه ألطاف إلا بعد أيامٍ عندما قالت لي:

- مستجير هو إيه اللي حصل ده لخالتو وجوزها بعد ما خرجوا من عندنا؟

- حصل إيه يعني.. قضاء وقدر!

- قضاء وقدر إيه، ده أول ما خرجوا من عندنا وقعوا كلهم فوق بعض على السلم، وخالتو زوبة جالها ارتجاج في المخ، وعمو عوف رجله اتكسرت والبت رزقة أخدت خمس غرز في راسها.

قالتها ولم تجد ردًّا.. فمن غير المعقول أن أحكي لها أنني خلعتُ لمبة السلم يومها وأغرقت كل درجات السلم بالصابون السائل ليقضي الله أمرًا كان مفعولا.

****

غادرت القافلة بعدما شحنتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى فغمرتني حالةٌ من "الزقططة" المزاجية التي لم تُغادرني إلا عندما أخبرتني ألطاف أن "الثلاث عمات الفاتنات" سيُشرفن منزلنا في اليوم التالي لأداء مناسك السبوع.

وكأنها إشارةٌ من الله فقد أصبت بنزلةٍ معويةٍ حادةٍ أقعدتني في الفراش ولم أستقبل وفود العائلة التي جاءت لاكتشاف عورات منزل العروس الجديدة.

انتهت أيام العسل وعُدت إلى عملي وبدأت الأيام تتشابه علينا حتى مرَّ على عُمر زواجنا أربعة أشهر فتسرب الملل إلى ألطاف التي تفرغت "للزن" على رأسي لنقضي أسبوعًا متواصلًا عند أمها في "بيت الزواحف"؛ رفضتُ فأصابتني بالقاضية عندما ألقت في وجهي بخبرٍ اقشعرَّ له بدني و....

****

أنا سعيدٌ جدًّا.. سعيدٌ حقًّا.. سعيدٌ بجنون.. أودُّ لو أن أبدل اسمي في بطاقة الرقم القومي من مستجير إلى سعيد لأصبح سعيدًا بالاسم والشعور ..

ولمَ العجب، فلتعرفوا أن حماتي المدعوة حسيبة النمر قررت تشريف منزلنا المتواضع لمدة يومَيْن بعد أن أصيبت زوجتنا المصونة "ألطاف" ببعض التوعك .

ولكي نتشارك السعادة فلن أخفي عليكم باقي الخبر، فقد جاءتْ حماتي ومعها بيومي النسخة المصغرة للكائن الحلوف، لا أدري حقًّا ما نوعُ القمامة التي رضعها وترعرع عليها !

لأول مرة في حياتي أرى طفلًا هوايته اصطياد الصراصير وقصقصة أجنحتها.. وها هو ذا أمامي يقوم بعملية تعذيب سادي لقطتي "سيمو"، يقبضُ على رقبتها ولا أدري ماذا يفعل بهذه الشفرة الحادة فالتقطتها بيدي صارخًا :

- بتعمل إيه بالموس ده يا حمار؟

- بفتح بطن القطة يا عم عشان أولدها!

قالها والغباء يتساقط منه كالعَرق، فرفعته بيدي من على الأرض وحررتُ سيمو من قبضته فتنهدت المسكينة وتمسحت بأسفل بنطلوني كأنها تقول لي: "أشكرك لأنك خلصتني من هذا المتخلف".

التفتُّ فوجدتُ حماتي تقترب :

- إنت قافش الواد من قفاه ليه.. حرام عليك يا شيخ مش طايق حتة العيل .

انفجرت عيناه فجأةً من البكاء، وقال ببراءةٍ :

- مستجير يا ماما، كل لما يشوفني يضربني في بطني .
سمعته فأحرقتني بنظراتها، وقالت له :

- اللي يضربك دب إيدك في مصارينه يا واد.. فاهم!

دار هذا الحوار الماتع بين حماتي وطفلها وأنا أقفُ أمامها كمن تبول في سرواله بعد أن اتهمتني بتكدير الصفو العام للأستاذ بيومي، وقالت:

- هتتغدى دلوقت.. ولا ملكش نِفس؟

- لا يا حماتي هتغدى.. جاي وراكي أهه.

سمعتُ صوت استغاثة يأتي من خلفي فوجدتُ الكائن الحلوف يمسك سيمو من رقبتها ويرميها من الشباك، ولم أنجح في إنقاذها ولا حتى الإمساك به بعد أن جرى على حماتي وهو يقول لها:

- ماما ماما القطة طلعت بتطير.

حاولتُ على قدر المستطاع تخدير أعصابي حتى لا أقذف به من الشباك ليطيرَ مثل القطة التي بالتأكيد رحلت إلى عالمٍ رحبٍ نقي يخلو من كائنات البيومي؛ فوجدته يقترب أكثر من حماتي ويضحك وينظر لي بخبثٍ، فتجاهلته وخرجتُ لأجد ألطاف تُجهز الأطباق على السفرة فقلتُ لها:

- إيه يا ألطاف.. لسه حسَّه بتعب يا حبيبتي؟

هزَّت رأسها، وقالت:

- هو إنت يعني هتشيل عني التعب.. ما تخليك في حالك.

- ده أنا بطمن عليكي.. فيكي إيه بس.. ما لك؟

- مستجير أنا مش طايقة نفسي.. ومش طايقة ريحة الأكل.

سمعتها حماتي فتدخلت:

- مش طايقة ريحة الأكل يا ضنايا، وإيه كمان؟

ردَّت ألطاف:

- دايخة يا ماما وجسمي مضحضح وعاوزة أعوء.

قاطعتها حماتي وهي تُطلق زغرودةً تصم الآذان:

- يا ألف نهار مبروك.. ده كده حامل يا ضنايا.

قالتها ونظرت لي بعد أن أخفتْ كل معالم السرور والبهجة من على خريطة وجهها:

- وإنت يا سي مستجير.. إوعي تقول لأمك إن ألطاف حامل.. العين فلقت الحجر.. وأنا بنتي مش قد عنيكو.

استقبلتُ الرصاص الذي يقذفه لسانها، وقلتُ:

- يا حماتي حسد إيه وعين إيه.. مش لما نتأكد من موضوع الحمل ده الأول؟

أمسكت وسطها ولوت عودها، وقالت:

- حامل يا نن عين أمك.. وهنروح للدكتور بعد الغدا.

قالتها واقتربت من ألطاف وهي تبخ في أذنها بعض السموم بصوتٍ لا أسمعه فأومأت ألطاف ونظرت لي، وقالت:
- يلا يا مستجير نتغدى وهنروح للدكتور بعد الغدا.

خرجتُ لأجد بيومي يجلس على أحد كراسي السفرة ويبتسم بغباء فتجاهلته؛ وحرصت على أخذ أدوية التهاب القولون قبل أن أبدأ في الأكل.

لاحظتُ أن طبق البامية النائم أمامي به من الاحمرار ما يُثير الريبة، ولكني تجاهلت هذا بسبب الجوع الذي يعبثُ بي فبدأت في الأكل وبيومي ينظرُ لي بخبثٍ لأكتشف ما قام به هذا الشيطان بعد أن أسمع صراخي سكان الحي:

- ااه.
صرختُ وأنا أتقلبُ على الأرض كالسمك المشوي الذي "يطقطق" بداخل الفرن، فجاءت ألطاف على صراخي وهي تسأل:

- فيه إيه يا بيومي.. مستجير ما له؟

- مش عارف والله.. بس وأنا بحط الشطة في الأكل العلبة وقعت كلها.

- مش عيب كدا يا بيمو.. صالح مستجير يلا.

قالتها، فقام بيومي واقترب مني لأصفعه على قفاه فوجدتُ حماتي أمامي تقول:

- بتضرب الواد برضه يا مفترى.. ربنا ينتقم منك.

- ده عيل ابن *&%$

- ما له ابني يا ضنايا.. سيب العيل في حاله واصلب طولك عشان نروح للدكتور.

التصق بيومي في عباءة أمه التي نادت على ألطاف لتسرع في إتمام لبسها، وقالت لبيومي:

- اسبق يا حبيبي إنت على تحت وهننزل وراك.

تبخَّر بيومي في لحظاتٍ، وما هي إلا دقائق ونزلنا لنجد أحدهم يحمله بيدٍ واحدةٍ من قفاه وبعض المارة قد تجمعوا بعد أن قام بالاقتراب من شحاذ كفيفٍ يطلب مساعدةً فالتقط أحد أعقاب السجائر الملقاة في الشارع وكان لا يزال مشتعلًا فأطفأه في كف الكفيف ووقف يضحك على صراخه.
دعوتُ الله بداخلي أن يفتك به المارة ولكني مجبرًا تدخلتُ وأعطيت الرجل الكفيف ورقةً بعشرة جنيهات فسامحه وانفضَّ الجمع.

وصلنا إلى عيادة طبيب النساء والتوليد، فأصرت حماتي أن تجلس على السلالم لتسترح فتركتهم وصعدتُ.

استقبلتني السكرتيرة التي تقومُ بحجز الكشف فتوجهت إليها فقالت:

- كشف يا أفندم؟
- أيوه، إن شاء الله.

- حضرتك اللي هتكشف؟

قالتها وهي تكتم ضحكةً أفلتتْ منها بعد أن رأت بطني المنتفخ بسبب الشطة التي وضعها لي هذا الحيوان في الأكل والتي تسببت في انفجار القولون؛ فأصابني من الحرج ما يكفي وقلتُ وأنا أبتسم:

- لا.. ده كشف للمدام بس هي طالعة ورايا على السلم.

دخلتْ ألطاف ومعها حماتي التي دفنت شحومها في أحد الكراسي اللينة وقالت:

- يقطع السلالم وطلوع السلالم.. تعالي جمبي هنا يا ضنايا.

جلست ألطاف بجانبها وأخرجتْ حماتي وعاء به بعض الينسون المغلي وبعض الأكواب البلاستيكية وأفرغت الينسون ووزعت على الجالسات:

- خدي يا حبيبتي.. ده ينسون نضيف والله.

انتهت من العزائم وأخرجت كيسًا به بعض "القراميش" وبدأت في إطعام ألطاف عنوةً وهي تقول:

- لازم تتغذي يا عنيا.. عشان عيالك تبقى صحتهم كويسة.

وما بين إصرار حماتي ورفض ألطاف للينسون والقراميش قامت فجأةً بإفراغ كل ما يحمله جهازها الهضمي على الأرض، فابتهجت حماتي وقالت:

- معلش يا خواتي.. حامل بقى غصب عنها.

جاءت العاملة وقامت بتنظيف المكان، واستغل بيومي فرصة انشغالنا وتسلل إلى غرفة الطبيب وقام بفتح الباب ليدخل على الطبيب وهو يكشف على إحدى النساء، فخرج فجأة وفي يده بيومي وصرخ في السكرتيرة:

- مين اللي دخل البتاع ده هنا؟

تقدَّمت حماتي وهي تلتقط طفلها وتقول للطبيب:

- معلش يا خويا ده عيل ميفهمش حاجة.

هدأت ثورة الرجل، وقال بتأففٍ:

- ولا يهمك يا حاجة.

اقتربت حماتي منه وهي تدسُّ في يده ورقةً ماليةً، وتقول له باستعطافٍ:

- دي بنتي ألطاف يا دكتور، عاوزاك تكشف عليها وبزيادة من عندك شوية.

تراجع الطبيب خطوةً، ولم يستطع ابتلاع الصدمة وقال لها:

- يا حاجة مباخدش بقشيش.. أنا مش سباك!

قالها وألقى بالورقة المالية بجانب حماتي، ودخل إلى غرفة الكشف فقالت لألطاف:
- لو جه واد تسميه على اسم أخوكي بيومي، ولو بنت تسميها حسيبة على اسمي.

لم أتحمل هذا الهراء، فتدخلت:

- حسيبة إيه وبيومي إيه يا حماتي.. هي ناقصة تشرد.

لم يتح لنا الوقت إكمال الخناقة، وجاء دور ألطاف في الكشف فدخلنا معها، وبدأت حماتي بالكلام:

- طمني يا دكتور.. حسيبة ولا بيومي؟

للحظاتٍ شعرتُ أن الطبيب سيُخرج صوتًا من الأنف والحلق ويطردنا جميعًا، لكنه ابتسم وقال:

- لما أكشف على المدام الأول يا حاجة.

وأكمل باقي كلامه لألطاف:

- لو سمحتي يا مدام ادخلي على السرير!

قامت ألطاف، وبدأ الطبيب بالكشف فانفردتْ بي حماتي:

- السبوع هيتعمل عندي في البيت وهتجيب حمص وشيكولاته بندق مكسرات.. آه.. سبوع بنتي لازم يبقى حاجة مفتخرة يا نن عيني.

لم تترك لي فرصة للرد، وأكملت:

- وتجيب للبت أكل وتغذيها ومتزعلهاش ومتخليهاش تغسل ولا تعمل حاجة.. أمال إنت لازمتك إيه يعني!

قالتها وتبعتها بإشارةٍ تحذيريةٍ بإصبعها، وأكملت:

- لو جت بت تكتب لها فلوس باسمها في البنك، ولو جه ولد تكتب له الشقة.. فاهم!

كانت تقول ما تقول وأنا غارقٌ في بحرٍ من الصمت، حتى خرج لنا الطبيب فلاحقته بإزعاجها:

- ها يا دكتور، حسيبة ولا بيومي؟

جاء رد الطبيب بالمفاجأةِ الصادمة:

- الحقيقة يا حاجة لا هو بيومي ولا حسيبة.. مدام ألطاف مش حامل.. ده حمل كاذب!

سمعتها حماتي فصرختْ في وجهي:

- حمل كاذب يا روح أمك.. أنا قلت من الأول إنك مش نافع.

****

تجاهلتُ السُّموم التي انسابتْ من لسان حماتي، واقتربتُ من ألطاف لأحاول تخفيف حدة الصدمة عنها فذكرتها بقدرة الله ورحمته، وطلبتُ منها ألا تترك فرصةً للشيطان ليعبث بتفكيرها فسمعتني حماتي التي ثارت لكرامة الشيطان واتهمتني مجددًا بأني سبب "خيبة الأمل".

عادت حماتي إلى منزلها وعُدنا، ولكن لم تعد ألطاف كما هي بعدما أصبحت منبعًا للأوجاع المتجددة والشكاوى المريرة، وانتقلت إلى مستوى أعلى بعدما بدأت تشك في سلوكي وتعبث بأغراضي.

حاولتُ استدراجها برفقٍ خارج دائرة الشك وتوهم المرض فجذبتي إلى مستوى أعلى وأعلى عندما تحولت إلى "حسيبة" أخرى تعيش معي في المنزل، فتسلل الرعب إلى قلبي وتخيلت أنها ستذبحني ليلا فلعنتُ اليوم الذي اشتهيتُ فيه الزواج و...

****

- الله يرحم أيام العزوبية.

قلتُها لنفسي وأنا عائد إلى منزلي ليلا بعد سهرةٍ مع بعض الأصدقاء المؤسسين لحزب "العزاب في نعيم"، وكالعادة تحوَّل وجودي بينهم إلى منبع سخريةٍ لا ينضب، لأن العبد الفقير إلى الله هو الوحيد الذي خالف عهد الحزب وبكل سذاجةٍ دخل القفص فكان من الطبيعي عندما هممتُ بتوديعهم لأنني تأخرتُ على ألطاف أن يقول لي حمزة صديقي ضاحكًا :

- أجي معاك يا ميسو عشان أحوش عنك؟

- تحوش عني إيه يا خفيف؟

- إيد المدام يا عم.. أحسن حلة كدا ولا كدا راشقة في دماغك.

قالها وانقلب على قفاه من الضحك، فضحكت ولوحت له بإشارةٍ يدويةٍ بذيئةٍ وخرجت لتنفرد بي طوال الطريق توقعاتي لسيناريو ألطاف عند عودتي.. وقد كان
.

وصلتُ إلى الشقة وفتحتُ الباب بمفتاحي ودخلتُ إلى الصالة لأجد الظلام يسكنُ المكان فحمدت الله في سري واعتقدت أن ألطاف قد غلبها النوم .

دخلتُ إلى غرفة النوم وخلعتُ ملابسي وألقيتها على الشماعة، ولكن تسمَّرت قدماي في الأرض فجأةً عندما لمحتُ شعرًا يطوفُ في فضاء الغرفة مصحوبًا بصوت نهنهةٍ فأوقدت نور الغرفة لأجد ألطاف "منكوشة" الشَّعر، ويتطاير من عينيْها شررٌ أعرفه جيدًا، فقلتُ بهمسٍ :

- سلامٌ قولًا من رب رحيم!

اقتربت ألطاف، وقالت :

- شفت عفريت يا مُستجير !

- ما لك بس يا لطوفتي؟

- منا حلوة وزي الفل أهه.. تحب أرقصلك؟

قالتها واقتربتْ مني لا أعرف على أي شيءٍ تنوي، ففاجأتني برد فعل عجيبٍ.

قبضتْ بيديْها على "حمالات الفانلة" وضيقتها على عنقي وضغطت وهي تقول:

- متجوز شوال بطاطا يا سي مستجير عشان تسيبني أكلم نفسي طول الليل لوحدي!

اقشعرَّت خلايا جسدي من نظراتِها ورعشة يديْها، وبدأتُ أتشكك في قواها العقلية فابتسمتُ وأنا أحرر رقبتي من أسْر قبضتها، وقلتُ لها:

- شوال بطاطا إيه بس يا عُمري.. ده إنتي ألطاف مراتي وسُكر قلبي.

لانت ملامحها، وقالت في هدوءٍ مصطنعٍ:

- فاكرني اتجننت.. طب نام دلوقت وهتشوف الجنان اللي بجد من هنا ورايح.

نامت ونمت تُغازلني شياطين الخوف؛ وكأن ألطاف هي المُخرج المُنفذ لهذه الليلة بما فيها من كوابيس بعد أن رأيتها تأتي من بعيدٍ وقد برز لها نابان أسكنتهما بين ثنايا لحمي ثم رفعتني وأسقطتني في حفرةٍ عميقةٍ جدًّا، وهي تصرخ:

- خلي صحابك ينفعوك يا روح أمك.

سقطتُ في قاع الحفرة لأجد حمزة وسامي ومنير يُقهقهون، واستقبلوني

بسخريتهم المعهودة قبل أن يقول لي حمزة:

- ما قلت لك أجي أحوش عنك يا ميسو.

فجاء صوتُ ألطاف وهي تنظر إلينا من أعلى وتقول لحمزة:

- لو راجل كنت تيجي وأنا أعجنك معاه يا صايع.

قالتها وبدأتْ في ردم الحفرة علينا ونحن أحياء، فأصابتني حالةٌ من الهستريا وأنا أحرك يدي في كل اتجاهٍ لأمنع تدافع الردم، فأيقظني ارتطام يدي بخشب السرير لأجد ألطاف تنام بجانبي وأنا ما زلتُ على قيد الحياة.

تسللتُ من جانب ألطاف بخفةٍ أتحسسُ خطواتي إلى الثلاجة لأسرق بعض اللحم من الفريزر حتى أطعم "بيومي"؛ وجدتُ كيسًا به ما يقرب من الكيلو، فقلتُ في سري:

- رزقك يا واد يا بيومي.

وبينما أهدهد كيس اللحم المثلج فرحًا بالغنيمة التي سأقدمها لبيومي كوجبة إفطار شعرتُ بأنفاسٍ دافئةٍ تقتربُ من خلفي وتلفح "قفايا" وأصابع تقبضُ على كتفي، التفتُّ لأجد ألطاف تنظرُ إلى كيس اللحم وتقول:

- واخد كيس اللحمة تعمل به إيه بقى؟

- ده.. دي.. ده.. يعنى.. ده هحطه لبيومي يفطر به يا ألطاف.

تحولت ألطاف فجأةً وصرخت:

- تاني هتقول بيومي.. مسمي الكلب على اسم أخويا يا مستجير!

ولم لا أسمي الكلب على اسم بيومي أخوها.. ذلك الكائن الذي يُشبه الإنسان في الشكل ويُشبه إلى حد بعيدٍ كلب البحر.
لا أنسى له ما كان يفعله في فترة خطوبتي لأخته، ولا نكاته السخيفة، ولا تنفيذه الحرفي لتعليمات حماتي بالتأكيد عليه بأن "يلزق" معنا ولا يتركنا لحظة؛ فكان بالنسبة لي ممثلا لهادم اللذات ومفرق الجماعات.

ولا أنسي له أيضًا أنه حتى بعد زواجي لم يرحمني من زياراته التي تنتهي بإفراغ الثلاجة من أي معالم أو ملامح لطعامٍ بعد أن يأتي على أخضرها ويابسها وسوائلها.

- هو أنا بكلم نفسي يا مستجير؟

قالتها فأخرجتني من طيفِ أخيها السمج، فقلتُ:

- ما هو الكلب ده كائن حي يا حياتي ولازم ياكل برضه.

لم ترد ألطاف ولوَّحت بيديْها في الهواء فتركتها وصعدت إلى السطوح في موعدي اليومي مع "بيومي"، كلبي الذي اشتريته وبعد مداولاتٍ وخناقاتٍ مع ألطاف أصدرتْ حكمها بأن يُربط الكلب فوق السطوح لعدة أسبابٍ أهمها أن ألطاف تُعاني من فوبيا الكلاب.

قضيتُ ما يقرب من ساعة مع "بيومي" ألاعبه وأطعمه من الخيرات قبل أن أنزل لأستعد للذهاب للعمل، فوجدتُ ألطاف ما زالت ترتدي بيجامة النوم وتجلس على الأرض بجانب مقاعد الأنتريه فتأكدت أنني على وشك معركةٍ صباحيةٍ، فقلتُ:

- الجميل قاعد كدا ليه؟

لم تنظر لي، وقالت بآليةٍ:

- ما هو إنت بالليل مع صحابك، والصبح مع الكلب.

- يا حبيبتي منا معاكي أهه.

أطالت النظر إلى الفراغ، وقالت:

- إنت خلتني فقدت شغفي للحياة.

- شغفك بالحياة.. الله يخرب بيت المسلسلات التركي اللي عضعضت في دماغك!

قلتها فحوَّلت ألطاف نظراتها إلى سكاكين ورشقتها في لحمي، وقالت:

- بتتريق عليا يا مستجير.. والله لأعرفك قيمتي.

دخلت إلى المطبخ ولم تمر دقيقة وسمعتُ صوت أوانٍ تتكسر، فدخلتُ لأجد ألطاف ممددةً على أرضية المطبخ وبجانبها بعض الأطباق المكسورة.

دقَّ الخوفُ باب قلبي فانتفض وحملتها إلى السرير وهرولتُ إلى الدكتور أنيس جارنا الذي يسكن في الشقة المقابلة، لم يتأخر الرجل وجاء ليرى ألطاف وأنا أتمزق بجواره فوجدته يبتسمُ ابتسامةً لم أفهمها وقال لي:

- اطمن يا مستجير.. واهدا عشان أعرف أكشف عليها.

بعد دقائق وجدتُ الدكتور أنيس بنفس الابتسامة الغريبة يجذبني بهدوءٍ من ذراعي بعيدًا عن ألطاف، فخرجتُ من الغرفة فقال لي بصوتٍ منخفضٍ:

- مستجير.. هو إنت مزعل المدام؟

سقطت كلماتُ الطبيب على رأسي، فقلتُ:

- والله يا دكتور ما عملت حاجة.. هي جرالها إيه بس؟

بهدوءٍ قال:

- المدام مش مغمى عليها!

بانزعاجٍ قلتُ:

- أمال اللي هي فيه ده إيه؟

- بتمثل يا مستجير.. عملت كدا غالبًا عشان محتاجة اهتمامك وحنانك.. محتاجة تحس بخوفك عليها.. خلي بالك منها!

قالها وتركني أرد على نفسي:

- هو أنا يعني بعذبها.. دي مطلعة عيني.. طيب يا ألطاف والله لأخليكي تمثلي براحتك قوي.

قلتُها وتراقصتْ أمامي فكرة بمليون دولار.

دخلتُ على ألطاف فوجدتُها على عهدها ما زالت تُمثل حالة الإغماء، فابتسمتُ ابتسامةً تحمل بين طياتها تخيلا لما سيحدث بعد دقائق.

وفي لحظاتٍ كان "بيومي" في يدي بعد أن أدخلته الغرفة ليطمئن على صحة ألطاف.. رآها وتمزق نياط قلبه فأطلق نباحه وجرى ليحنو عليها فدبت الروحُ في جسد ألطاف مرةً أخرى وقررتْ أن تأخذ جائزة الدولة في القفز فوق الدولاب بعد أن أطلقت ساقيْها في براح الغرفة.

****

وفي سابقةٍ هي الأولى من نوعها أصيب الكلب بحالةٍ من الذعر الذي سببه له صراخُ ألطاف، واشتدت المنافسة بينهما في الصياح فلم يتنازل هو ولم تهدأ ألطاف.

أنهيتُ هذا العرض الهزلي بعدما اصطحبت الكلب وربطته في مكانه وذهبتُ إلى عملي وأنا في قمة الانشكاح والبغددة، وأصابتني حالةٌ من إسهال الضحك الذي استمر حتى عودتي إلى المنزل.

استقبلتني ألطاف بمفاجأة جحظت لها عيناي عندما رأيت ما يقرب من عشر سيدات افترشن أرضية الصالة التي تحولت إلى "مولد أم سمسم".

استمر الرغي والنم لساعاتٍ حتى عادت كل جارة إلى جُحرها ودخلت أنا إلى دورة المياه فسمعت من ألطاف ما تسبب في انحسار البول في مثانتي عندما ذكرتني بموعد.....

****

اليوم الأحد.. الميعاد الرسمي الذي حددته ألطاف لزيارة أمها، وهو بالطبع يومٌ مميزٌ نحمل ما لذ وطاب وغلا ثمنه وزاد وزنه، فأنا لا أتحمل تكرار آخر موقعةٍ مع حماتي يوم أن كنتُ مثقلًا بالديون ومفصولًا من العمل وجاء يوم زيارتها المُقدس فلم أسلم من حفلة "التقريع" والتلميح الصريح بأنني جئتُ أزيد همها همًّا، وسمعتها تقولُ لألطاف بصوتٍ تتأكد أنه يخترق أذني :

- إلا ما دخل عليا بكيس بصل ولا حزمة فجل.. جوزك ده مسمار مقطوم.. جوز الجزمة أنفع منه !

تظاهرتُ أنني لم أسمع شيئًا، فلا يُعقل أن ألقي اللوم على ثعبانٍ لأنه يحمل السم ويوزعه مجانًا على الناس، واليوم أحضرتُ قائمة طلبات استعدادًا لزيارتها ولم أنس بالطبع البصل، حتى أتجنب جرعة السم المقررة على بدني من لسان حماتي الغالية .

تممتُ على قائمة المشتريات، وناديتُ على ألطاف للمرة العاشرة تقريبًا :

- يلا يا بنتي عشان نلحق نروح، المشوار طويل .

- هو مشوار ماما طويل آه.. عشانه تقيل على قلبك .

- لا.. الأكياس دي هي اللي تقيلة يا ألطاف !

- إوعى تكون نسيت صابون الغسيل يا مستجير.. دي ماما موصياني، عشان محدش بيبيعه عندها .

- صابون غسيل إيه.. حد يزور حد يجيب له صابون غسيل !

- مستجيري يا حبيبي.. يعني ماما هاتطلب من مين بس؟

- تطلب آه.. وادفع يا حمار !

- يا حبيبي ربنا يديها العمر والصحة وإنشاله تطلب عنيا.

غمغمتُ وتفوهتُ بشبه كلماتٍ ليس لها معنى ولكنها تحمل بوادر تخلف عقلي قريب وسكته دماغيه مرتقبة، فتجاهلتْ ألطاف كل ردود أفعالي وقالت :

- يلا يا ميسو شيل بقى الحاجات ويلا ننزل عشان منتأخرش .

توجهنا إلى موقف عربات الأجرة وأنا أحمل أطنانًا من المواد الغذائية وغير الغذائية، وكأننا مهاجرين إلى خيم الإيواء .

- العاشر يا سطى ؟

أعتقد أني سمعتُ صوتًا لشبه إنسانٍ يتطاير الرذاذ من بين شفتيه وهو يقول :

- هتحاسب لوحدك على نفرين يا رجولة عشان العزال اللي هتشغل بيه الكرسي د ه.

- هحاسب على زفت نفرين يا عم .

تأفف شبه الإنسان ولعن الدنيا التي كسرت أنفه وأحنت قامته وألقته في اليم ليعمل في هذا الهباب- كما قال- وقال لي أيضًا:

- ما تخلص وتركب يا رجولة.. ولا أنزل أشيلك ؟

- لا يا عم عندي رجلين أهي.. صبرك علينا !

انحشرت الأجساد وتراصت على كراسي الهيكل "الصفيحي"، وبينما أنا أستعد للركوب كان قائد المركبة يُلقي بتعليماته :

- الكنبة اللي ورا أربعة يا حضرااات .

تحركتْ بنا السيارة وعند أول مطب ضغط السائق على الفرامل باحترافيةٍ تامة شعرتُ معها أنني ابتلعتُ لساني والتفت أطمئن على ألطاف خوفًا من أن تكون انزلقت تحت الكرسي، ولكني وجدتها سالمةً آمنةً وبصحةٍ جيدةٍ، ورفعت حاجبها وقالت :

- إيه يا راجل بتبص لي كدا ليه ؟

- مفيش يا ألطاف.. بطمن عليكي .

وفجأةً سمعنا صيحةً اخترقت آذاننا لسيدةٍ ثلاثينيةٍ في الكرسي الأخير أغلب الظن أن ميعاد ولادتها بعد دقائق :

- هو مفيش نظر يعني.. بالراحة وإنت ماشي يا سطى .

لم يرد السائق ولم يهتز أحد، فتدخلت ألطاف وقالت لها :

- آه والنبي يا ختي.. واخدينها بالقوة والدراع .

التفتتْ لألطاف، وقلت لها بغضبٍ :

- متتحشريش في اللي ملناش فيه.. خلي يومك يعدي .

- إيه يا مستجير.. الولية كانت هتسقط !

- يا ستي وإنتي اللي هتولديها.. ما تخلينا في حالنا !

بدأ كل راكب يدلو بدلوه ويحلل الأمر، وكانت البداية عند رجلٍ بسيطٍ معممٍ يلبسُ جلبابًا مخططًا :
- يا إخوانا المشكلة في الطرق.. كل مترين مطب، والله إحنا محتاجين تخطيط صح أو نرجع نركب حمير زي زمان .

قاطعه شابٌّ أنيقٌ يلبس قميص كلاسيك ونظارة طبية :

- لا ياعم الحاج.. إحنا بنعاني من أزمة ثقة في البلد وحاسين باغتراب جوه بيوتنا حتى.. إحنا محتاجين نرجع نحب البلد دي.. منهم لله .

تدخلت ألطاف بعد أن مصمصت شفتيْها:

- آه والنبي يا خويا.. معادش فيه بركة؛ تصدق باللي خلقك الـ100 جنيه بتتفك ما بتقعد ساعة.

نظرتُ لها نظرةً حادةً، وقلتُ :

- إنتي بتهببي إيه.. مش قلت لك ملكيش دعوة بحد.. إنتوا بتقولوا إيه أصلا؟ !

أخرسنا جميعًا صوتُ السائق الذي قال :

- ما تخلصونا من الغاغة دي يا خوانا وجمعوا الأجرة سوا .

قررتُ بيني وبين نفسي أن أتجاهل موضوع تجميع الأجرة، يكفيني هم "لبخة" الأكياس، فلم أنطق بحرفٍ، وفجأةً عمَّ الصمتُ وكأن جميع الركاب تضامنوا معي في تجاهل حصاد الغلة للسائق؛ وإذ بصوتٍ أعرفه تمامًا يقول :

- أربعة ورا بتسعة جنيه وواحد باتنين وربع يبقى لسه نفرين في الكرسي ده محاسبوش .

- الله يخرب بيتك يا ألطاف.. إنتي مالك ومال الأجرة؟

- اصبر بس يا مستجير.. هات كدا أربعة جنيه ونص.

- خدي أربعة وزفت.. حسابنا بعدين .

أكملت ألطاف بهمةٍ :

- كدا لسه اتنين محاسبوش.. أيوه يا حاج.. إنت عامل نايم عشان متدفعش يا لئيم.. هههههه .

نظرتُ لألطاف بتوعُّد وأنا أحترق من داخلي.. وهي تُسلم السائق الأجرة :

- خد يا أسطى.. فيه كدا ربع باقي ورا .

نظر لها السائق ولم يرد، فأعادت عليه ألطاف الكلام :

- فيه ربع ورا يا سطى .

رد السائق بنفاد صبر :

- مفيش فكة يا أبلة.. خليه يسامح .

- يا سطى حقي وحقك، إنت أخدت أجرتك يبقى تجيب الباقي .

أعادت ألطاف حالة البلبلة بين الركاب، فتدخل الرجل المعمم :

- ناجص ياكلونا.. جبر يلم العفش.

فأكملت الأخت الحامل السيمفونية :

- ولو حد دفع له أجرته ناقصة مليم كان هدّ الدنيا وبناها .

تابع السائق أحداث النقاش من مرآة السيارة وقرر أن يتخذ قرارًا حاسمًا بالتدخل :

- مكانش أم ربع جنيه يا خوانا اللي هتقرفونا بيه .

ثم التقط جنيهًا معدنيًّا ولوَّح به للركاب قبل أن يلقيه من الشباك، وهو يُكمل كلامه :

- ولا بيهمنا الفلوس.. دي تحت جزمتنا .

علقت ألطاف :

- حرام ترمي الفلوس يا أسطى.

وكأن السائق ينتظر أن تُعيد ألطاف إشعال فتيل الحديث فأخرج من بين أسنانه صوتًا حيوانيًّا :

- وإنتي ما لك يا وليه إنتي.. من ساعة ما ركبتي وإنتي عاملة فتنة في العربية..عليا الطلاق ما همشي إلا لما تغوري منها .

أحرقني كلامُ السائق، فقلتُ :

- وليه الغلط بس يا عمهم.. ما تخليك حلو عيب الكلام ده!

أوقف السائق السيارة، وقال :

- طلاق تلاتة مانا متحرك.. يلا إنزلوا .

ردت ألطاف :

- يعني هتطردنا من الجنة .

هنا تحولت عينُ الرجل إلى كتلة من الاحمرار وفتح باب السيارة استعدادًا لمعركةٍ يعلم الله عواقبها.. فخرجنا أنا وألطاف وأنا حاول لملمة الأكياس وإذ بالسائق يقف أمامنا ويُلقي سيجارته، ويقول:

- وحق من خلى الطيارة تمشي ع الهوا لأعلم عليكوا.. ده إنتوا ضيعتوا حبايتين الأحمر اللي بلبعتهم ع الصبح.

قالها وأخرج شفرة حلاقة من بين اللثة والأسنان وحركها بعشوائيةٍ أمامنا.. رأتها ألطاف فدارت بها الدنيا وسقطت فاقدةً للوعي.. أما أنا فحاولت صد هجمة السائق وتفادي ضرباته وحركاته فقام بركل كل ما أحمله بقدمه حتى تناثرت حبات البرتقال والبطاطس والبصل وقطع الصابون وتحولت كرتونة البيض إلى سائل يسبح على الأسفلت.

تركنا السائق ومشى إلى حال سبيله فانحنيتُ لأطمئن على ألطاف؛ التقطت هاتفها لأتصل بالإسعاف فنحن الآن في طريقٍ صحراوي غالبًا لا يعرفه بشر؛ حاولتُ التركيز لأفكر في كيفية الخروج من هذه الورطة وإذ بهاتف ألطاف يرن وهو في يدي لأجد مكالمةً واردةً باسم "ماما ملاكي " ؛ فتحت الخط لأجد حماتي تقول :

- بت يا ألطاف.. اتأخرتوا ليه يا بنتي.. أكيد سي قرد لسه مصحاش ومعطلك.. ساكتة ليه يا بت.. آه م الحق.. إوعي تنسي صابون الغسيل.

تجمعت كل ملائكة الصمت ولجمت وحجبت كل حروف الأبجدية عن عقلي ولساني لتمنعني من الرد عليها، فأغلقت الخط وسقطت بجانب ألطاف.

****

حمصت الشمس جلودنا ودغدغ الأسفلت عظامنا بعدما قضينا ساعاتٍ صحراوية قبل أن تفيق ألطاف التي هجمت على جسدي المعلول وقبضت على رقبتي وصرختْ في وجهي "مقتلتوش ليييييييييه".

لم أدر حقًّا ماذا يجب أن أفعل معها، هل أدفنها تحت الرمال وأتخلص منها أم أقص لسانها حتى تخرس تمامًا أو أسلمها بيدي إلى جهاز أمن الدولة بتهمة بهدلة زوج مسالم!

انتهى هذا اليوم قبل أن يبدأ عندما أرسل لنا الله بسيارة عابرة رق قلب قائدها لحالنا وعرض علينا المساعدة فركبنا معه.

عدنا إلى المنزل فاستعارت ألطاف لسان حماتي وأقسمت ببركة الحسين أن هناك عيونًا شريرةً تتربص بنا فتجاهلت هذه التخاريف التي أخذت منحنى آخر عندما قالت ألطاف "بس أنا بقى هتصرف مع العيون دي بطريقتي" و.....

****

أصبحتْ حياتي مع ألطاف كحياة المُصاب بالتهاب القولون الذي يُعاني من انتفاخٍ دائمٍ وحموضةٍ مزمنةٍ وتقلباتٍ معويةٍ ومزاجيةٍ حادةٍ.

فبعدما سيطرت الأفكارُ الخرافيةُ على رأسها حوَّلت حياتي إلى فيلمٍ مأسوي؛ حتى إنها اتهمت إحدى الجارات بصنع عملٍ سُفلي لها ليفسد عليها حياتها.

سمعتُها فلم أستطع منع ضحكاتي التي تحوَّلت إلى "إسهال ضحكي" لم يتوقف حتى عندما صرختْ في وجهي:

- بتضحك عليا.. شايفني هبلة يا مستجير!

أوقفتُ سيل الضحك بصعوبةٍ حتى لا أفقد إحدى عينيَّ بعدما فردت أصابعها وقربتها من وجهي، وقالت لي:

- فاكرني اتجننت يا ابن سعدية.. فاكرني اتجننت!

- والله.....

لم أكمل جملتي بعدما انقطعت الكهرباء وعادت فجأةً وليتكمل بهاء المشهد فقد سقط فجأةً البرواز الذهبي الذي يحمل صورة زفافي على ألطاف بعدما انقطع الخيط المعلق به فارتجفتْ ألطاف وقالت بصوتٍ مهزوزٍ:

- صدقتني لما قلت لك إن معمول لنا عمل والبيت مليان عفاريت.

أصابتني حالةٌ من "التناحة" ولم أرد، فخرجت ألطاف وتركت لي الغرفة فأغمضت عينيَّ وتكاثرت الأسئلة في ذهني..

هل هذه الفتاة هي مَن حلمتُ بأن يجمعني بها الله في حلاله يومًا ما!

الحق يُقال إنها طيبة القلب، حنونة، ولكن عيبها الوحيد أنها تـ.....

- مستجيييييييييييييير!

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

- مليون مرة أقولك متسبش شبشب الحمام مقلوب كدا.. بيجيب النحس!

- يا ألطاف الله!

- إنت بتتريق يا مستجير!

- آه بتريق.. طالما كدا كدا هنتخانق يا حياتي.

وكالعادة انسحبتُ من أمامها حتى لا تتحول بداية اليوم إلى حربٍ ضروسٍ وأكون فيها ضحية معركة "شبشب الحمام المقلوب"؛ دخلت الغرفة أنقب عن قميصٍ تحت الأنقاض المُكومة أعلى السرير فوجدتُ القميص الأبيض وقد انخلع أحد أزرار .ه

ولإيماني بأن الحياة الزوجية مشاركةٌ فلم أرد أن أثقل على ألطاف وأحضرت أدوات الحياكة وشرعت في تركيب الزر، ولحكمةٍ لا يعلمها إلا الله وجدتُ ألطاف أمامي تصرخ حتى إنني تشككتُ أنها ضبطتني في وضعٍ مُخلٍّ بالآداب مع القميص .

- أفهم بقى إيه ده؟

- إيه اللي إيه يا ألطاف؟

- سايب المقص مفتوح ليه!

- وما له بس يا حياتي.. خايفة يجيله برد؟

- بطل تريقة يا خفيف.. كدا بيجيب النحس يا مستجير.

- بك أستجيييييييييييير يا اااااااااااااارب.

انقضَّت ألطاف على المقص وأغلقته وتنهَّدت وكأنها عبرت خط بارليف المنيع، ونظرتْ لي نظرةً ساهمةً وقالت :

- اعمل حسابك في فاكهة وفراخ وحلويات وكيلو ملح خشن وإنت جاي .

- إيه بس.. ليه كل ده؟

- عشان ماما هتيجي تقضي اليوم معانا.

- طب وكيلو ملح خشن ليه؟

ضيقت عينيْها وقالت بعصبيةٍ:

- مش مهم تعرف.. هاته وبس.

أحضرتُ لها ما أرادت، وعندما عُدت سمعتُ صوت حماتي يأتي من المطبخ فتوسلتُ إلى ملامحي لتتبسم ولو للحظاتٍ اتقاء لـ"بوز حماتي" الذي يُعتبر هو النحس ذاته !
هالني ما رأيت، هل قررت ألطاف خلع بلاط الشقة والتنقيب عن بترول؟

كل قطع الأثاث مكومة في أحد الأركان والأرض عارية من السجاد، جاء صوتُ ألطاف من الداخل :

- جبت الملح؟

- أيوه يا حبيبتي.. إنتوا بتعملوا إيه؟

ردَّت حماتي وهي تتفحصني بنظراتِها كأمين شرطة في لجنة:

- هنعمل حلة البركة يا مستجير.

- ده اللي هو إزاي يا حماتي؟

- هتعرف دلوقت.

وبالفعل أحضرتْ حماتي حلة كبيرة بها ماء ووضعت فيها الملح الخشن وأفرغت فيها كيسًا ممتلئًا بحبة البركة وشرعت في التقليب بملعقةٍ خشبيةٍ وهي تُردد كلماتٍ مبهمةً لا يعلمها إلا الله وألطاف بالتأكيد، وقامت برش كل أركان وزوايا الشقة وهي تُردد المعوذتين بصوتٍ مسموعٍ .

قتلني الفضولُ فلم أطق صبرًا وجذبتُ ألطاف بالقوة لأفهم ما يجري :

- إيه اللي أمك بتعمله في الشقة ده؟!

- دي "حلة البركة"، عشان لو فيه عمل أو سحر تفسده وعشان البركة تحل ع

البيت .

- البركة.. آه.. وحماتي هي اللي هتجيب البركة؟!!

قلتُها ساخرًا فوجدت كفًّا به ما يقرب من ثمانية أصابع يرسو على كتفي، وإذ بها حماتي ترمقني طوليًّا وتقول:

- بتقول حاجة يا مستجير؟

- قلتُ باستسلامٍ ويأسٍ:

- ولا حاجة يا حجة.. كنت بكح.

قالت بكل جبروتٍ:

- طب إبقى كح بصوت عالي شوية عشان أسمعك.

استقبلتُ كلمات حماتي ولم أرد لانشغالي بأمرٍ مختلفٍ.. مختلفٍ تمامًا.. تمامًا جدًّا.

انتظرتُ حتى أتمت كل شيءٍ ومرَّ أسبوعٌ وأكثر، فأحضرت عشرة كيلو جرامات من الملح الخشن وكيسًا كبيرًا به حبة البركة وتركتها في المطبخ وأقنعتها أنها ربما تحتاجها قريبًا فلا تثقل عليَّ بتكرار المشوار .

هزَّت رأسها ونظرت لي مطولًا، وقالت:

- حاسة إن في عنيك كلام.. ما لك؟

التفتُّ يمينًا ويسارًا وقلتُ بصوتٍ تعمَّدت أن أجعله منخفضًا:

- فيه صوت بسمعه كل يوم وأنا نازل بالليل أشتري العشا من السوبر ماركت.

انكمشتْ ألطاف وقالت:

- صوت إزاي يعني؟

اقتربتُ منها وقلتُ:

- صوت بسبسة وحدّ بينادي باسمي بهمس.

انفعلتْ ألطاف واتهمت الجارة التي تسكن في الطابق العلوي وأخبرتني أنها غيورةٌ وتسبقها سيرتها بأنها تعشقُ إيذاء الغير.

أومأتُ لها فشعرتُ أنها ستنفجر خلال دقائق فعرفتُ أن نصف خطتي قد نجح، والآن لا بد من تنفيذ باقي الخطة .

استيقظتُ مبكرًا قبل ألطاف وأحضرتُ "فردة شراب" وأشعلتُ بها النيران فاحترقت أطرافُها وكتبتُ عليها بقلم أسود اسم "ألطاف"، ثم أحضرتُ فنجانًا مملوءًا بالماء وسكبته أمام باب الشقة وألقيتُ "فردة الشراب" وعُدت إلى

السرير بجوار زوجتي حبيبتي .

استيقظتْ ألطاف وقالت إنها ستذهب إلى والدتها لتتدبر معها الأمر وتفكر ماذا تفعل مع الجارة المؤذية فوافقتُ بكل وداعةٍ .

تأنقتْ واستعدتْ للخروج وفتحت باب الشقة و .....

- مستجيييييييييييييييييييير.. إلحقني!

قفزتُ من الفراش وما زالت علاماتُ البراءة تحتلُّ ملامحي:

- ما لك يا حبيبتي؟!

شقَّ صراخُها سكونَ العمارة وجرت إلى المطبخ لتُحضر الملح وحبة البركة وأغرقت المكان، وقالت:

- هي مفيش غيرها خطافة الرجالة أم عود مسوس.

ببراءةٍ قلتُ:

- قصدك نازلي!

لم ترد، وإنما أحضرت سكينة حادة من المطبخ وصرختْ:

- هقتلهاااااا.. والله هقتلهاااااااااااا.

قالتها وأنا منبطحٌ لا إراديًّا على الأرض أضحك ضحك السنين.

****

بهستيريا جرت إلى المطبخ لتحضر "عدة الشغل" وعادت تحملُ في يديها وعاء كبيرًا مملوءًا بالملح وأمطرت أركان الشقة بقذائف عشوائيةٍ من الملح الممزوج بحبة البركة دون أن تُضيف إليهما الماء لتضمن أنه مركز المفعول وسيطرد العفاريت سريعًا ويفسد العمل الذي قصدتها به جارتنا الملعونة نازلي..

انتهت من المهمة الأولى ثم قامت بحرق فتات "فردة الشراب" وتمتمت بالمعوذتين وأنا أتابعها في صمتٍ وأجاهد لدفن ضحكاتي بداخلي حتى لا تدفنني حيًّا تحت بلاط الشقة.

كفنت رماد الحريق بكيسٍ أسود وسحبتني من يدي بلا مقدماتٍ ونزلنا إلى الشارع لا أدري فيما تفكر ولا ماذا ستفعل. حاولتُ استنطاقها فلم ترد إلا عندما وصلت إلى النيل فألقت الكيس بكل قوتها حتى ابتلعه النيل في جوفه فتنهدت وقالت لي بهدوءٍ مُخيفٍ:

- يلا نرجع البيت حالًا.

****

عُدنا إلى الشقة فدخلتْ ألطاف وخلفها دخلتُ فغابت نصف دقيقة في المطبخ وخرجتْ تحمل قطعةً حديديةً أشبه لـ"إيد الهون" وجرت نحو باب الشقة فصرختُ فيها:

- هتعملي إيه يا هبلة إنتي؟

استدارتْ وصرختْ في وجهي:

- أنا هوريك المجنونة بنت المجانين هتعمل إيه!

قالتها وفتحت باب الشقة وهي تصرخ:

- هقتلك يا نازلي.. هقتلك!

هرولتُ خلفها وبصعوبةٍ استطعت تقييدها بذراعي وقلتُ لها بلطفٍ مصطنعٍ:

- ألطاف حبيبتي.. نازلي ملهاش ذنب.

سكتتْ للحظاتٍ، ودارت حولي وقالت:

- بقى نازلي ملهاش ذنب.. تلاقيك مظبط معاها يا خويا.

قالتها ونظرتْ إلى عينيَّ بحدةٍ فارتجفتُ وقلتُ بوداعةٍ:

- يا حبيبتي ده مش عمل ولا حاجة، ده مجرد هزار والله.

حاولتُ استشفاف أي رد فعل من ملامحها فلم أستطع، كانت صماء كتضاريس الصحراء، كل ما كانت تفعله هو أنها كانت تنظرُ في الفراغ وتهز رأسها إلى أعلى وإلى أسفل، تصنعت الدعابة وقلتُ:

- بس إيه رأيك في المقلب.. حلو.. صح؟

لم تتخل ألطاف عن صمتها المذهول واستمرت في هز رأسها، فقلتُ:

- والله يا لطوفتي السِّحر والأعمال دول هبل وخرافا.....

لم أتم كلماتي ولم أستوعب تمامًا ما جرى.. كل ما أتذكره أن ألطاف هوت على رأسي بالقضيب المعدني، وبعدها تحوَّل كل شيءٍ إلى اللون الأسود .

نظرتُ حولي فلم أر إلا أدخنةً كثيفةً جدًّا بعدما وضعوني في وعاءٍ ضخمٍ وجردوني من ملابسي، ورأيتُ حماتي تُمسك حلةً ضخمةً وتُحممني بماء مالح جدًّا، يدخل في أنفي وحلقي فأنتفض، فتتعالى ضحكاتُ ألطاف وهي تقول :

- ادخلي على نمبر تو يا مامي!

تسرسب الرعبُ بداخلي واكتمل عندما نظرتُ إلى يد حماتي التي أمسكت

بقرون شطة مكسيكي واستعدت لدفنها داخل فمي فشهقتُ وصرختُ ودفعتُ يديْها بكل قوتي، وقلتُ:

- شطة لا.. والنبي شطة لا لا لاااااااااا.

- شطة إيه بس.. إنت بتخرف يا حبيبي.

طرقتْ هذه الكلمات أذني المشوشة فحاولتُ تتبع مصدر الصوت فوجدتها ألطاف الجالسة بجواري على سرير المستشفى، ودققتُ النظر فرأيت شبحًا آخر يقف على باب الغرفة، فسألتُ ألطاف:

- مين دي؟

- دي ماما يا حبيبي.. جاية تطمن عليك.

- أنا فين.. هو حصل إيه؟!

تدخلت حماتي ونظرتْ لي وقالت بصوتٍ كالفحيح:

- ما هو زي القرد أهه يا ختي.. هو ده بيصيبه صايب!

بشكلٍ نسبي استرددت الوعي.. وجدتني أرقد على سريرٍ في المستشفى بعد أن ضربتني ألطاف.

..... "ضربتني أ..ل..ط..ا..ف"
كررتُ الجملة في عقلي فوجدتني لا إراديا أصرخ
- والله هبلغ عنك.. بتضربيني يا ألطاف.. حسبي الله ونعم الوكيل فيكي وفي أمك.

تدخلت حماتي:

- هو اللي زيك بيموت.. ده إنت زي القطط بسبعة أرواح.

هدأتُ نسبيًّا بعدما دخلت علينا ممرضة فاتنة، لينة القوام، خضراء العينيْن، كالعصفور غردت فأنستني الألم عندما قالت:

- صباح الخير يا أستاذ مستجير.

ابتسمتُ بصعوبةٍ، وقلتُ بصوتٍ واهنٍ:

- صباح النور.

اقتربتْ ووضعتْ يدها الرقيقة على جبهتي، وقالت:

- إصابة حضرتك كانت شديدة قوي.. دي عصابة اللي ضربتك ولا إيه.. شكله حد مش عنده قلب خالص اللي ضربك كدا.

لم أستطع الرد لأني توقعتُ حدوث مذبحةٍ في التو واللحظة عندما لمحت نظرات

ألطاف وحماتي للممرضة، فقلتُ:

- الحمد لله.. محدش بياخد أكتر من نصيبه.

هزَّت الممرضة رأسها، وقالت:

- تسمح لي أغير لك على الجرح.

وفي تلك اللحظات التي قامت فيها الممرضة بعملها كنتُ أترقب حربًا شعواء ستحدثُ بعد انصراف الممرضة، وقد كان.

- ما له نصيبك بقى يا سي مستجير؟

بوهنٍ قلتُ:

- نصيبي حلو الحمد لله يا ألطاف.

غلظت صوتها وقالت:

- ما كنت من شوية بتتكلم وحلو، دلوقت هتعمل لي فيها ميت!

تدخلت حماتي التي قلدت الممرضة، وقالت:

- وإيه العوارة الختيرة دي.. أكيد ناس شريرين اللي ضربوك.

كالهواء مرَّت كلماتُ حماتي وكأنني لم أسمعها، فجاءت ألطاف بما زلزل رأسي عندما قالت:

- أنا شايلة ومعبية في قلبي يا مستجير.. خليني ساكتة أحسن لك.

استفزتني كلماتها فقلتُ:

- لا يا ألطاف طلعي اللي عندك!

بعصبيةٍ قالت:

- أنا متحملة واحد خاين زيك وصابرة.

تدخلتْ حماتي وقالت:

- مش لما تفلح مع مراتك تبقي تخونها يا روح أمك.

تكهربت أعصابي وقلتُ لألطاف:

- خنتك مع مين يا هانم.. انطقي!

ظهرت شبه دمعة في عينها، وقالت:

- خنتني مع نازلي جارتنا ومعايا الدليل.

ارتفع ضغط الدم في رأسي، وقلتُ:

- وإيه دليلك يا هانم.. طلعيه!

تدخلت أمها لتزيد سخونة الموقف وقالت:

- خانك إزاي يا بت وأنا أشوه لك وشه.

تراجعت ألطاف، وقالت:

- خلاص يا ماما.. خليني ساكتة وحاطة ف كبدي.

بتهكم قلتُ:

- لا يا هانم ألف سلامة على كبدك.

تدخلت
حماتي:
طب إفلح ف بيتك الأول يا بصباص يا خيخة!

تقافزت على رأسي كل شياطين الأرض وأردت أن أحطم جمجمة حماتي وألطاف، وأيضًا جمجمة مَن تسبَّب في هذه الزيجة عديمة الملامح، ولكن لم تسعفني حالتي الصحية المنكوبة فأجَّلت قرار تحطيم الجماجم إلى ما بعد التعافي، وعُدت إلى الحوار مع حماتي التي قالت لألطاف:

- قوليلي سبع البرومبة ده خانك مع مين وأنا أعلقهم سوا على عامود نور يا بت!

تبدلت ملامح ألطاف وتلجلج لسانها حاولت الهروب من الرد، فجاءت لها الفرصة على طبق من ذهب عندما دخلت الممرضة الحسناء وقالت:

- أستاذ مستجير.. يلا عشان تاخد الحقنة!

اندهشت الممرضة عندما هجمت حماتي على الحقنة، وقالت لها بصوت تاجر مخدرات:

- هوينا يا ختى.. هنديهاله إحنا.. يلا زقي عجلك!

قالتها فغادرت الممرضة الغرفة في ذهولٍ فصرخت ألطاف في وجهي:

- أنا عاوزة أعرف إيه اللي بينك وبين الحربايه دي؟

احترقت تلافيفُ مخي بعدما ارتفع ضغط الدم والحرارة، وقلتُ لألطاف:

- أنا عاوزك تنطقي وتقوليلي إيه دليل خيانتي.

بثقةٍ وثباتٍ أجابتْ:

- شوفتك بعنيا دول!

اقتربتُ من الجنون وقلتُ:

- شوفتي إيه وفين يا ست هانم؟!

بترددٍ قالت:

- آه.. شوفتك وإنت طالع عندها الشقة يا مستجير.

تدخلت حماتي، وقالت:

- آه يا وسخ.

بهيستريا قلتُ:

- هي مين يا ست ألطاف؟

حصدت ألطاف كل محصول الغباء، وقالت:

- شوفتك في الحلم يا مستجير، وأحلامي مبتكدبش!

تدخلت حماتي:

- صادقة يا بنتي ومكشوف عنك الحجاب.

اقتربتْ جمجمتي من الانفجار بعدما سمعتُ من ألطاف ما سمعت، وشعرتُ بانسحاب الهواء تدريجيًّا بعدما امتلأ فراغ الغرفة بغباء حماتي فصرختُ فيها:

- اطلعي بره يا وليه منك لها.. وبنتك طالق مني يا حسيبة.

قلتها ولم أدر بالدنيا بعدما تحولت ألطاف من هيئتها البشرية إلى كائنٍ جاء للتوِّ من عصر الديناصورات وهوتْ على رأسي تمامًا بمطفأة الحريق لأغيبَ عن الوعي أخيرًا.

****

لأسابيع استمرت المفاوضات بين الحياة والموت انتهتْ بنجاح الحياة في احتضان روحي وقذفتْ بي مرةً أخرى إلى الدنيا.

خرجتُ من المستشفى فرأيتُ أسرابًا من البشر في استقبالي فانتشيتُ وتخيلتُ أنني صرتُ بطلا شعبيًّا بعدما قام أحد شباب الفيس بوك بنشر قصة حياتي.

ابتسمتُ وهيأتُ نفسي لتحية الجماهير العريضة فتعالت الهتافاتُ:

- مش هنمشي.. هو يمشي.

اقتربتُ من أحدهم وسألته:

- هو فيه إيه يا كابتن؟

صرخ في وجهي:

- يسقط يسقط حسني مبارك.

قالها وجرى كالممسوس وتعالت هتافاتُ الجماهير "ثورة.. ثورة.. ثورة.. ثورة.." فانحرفتُ بعيدًا عن التجمعات وقررتُ في هدوءٍ أن أصنع ثورتي الخاصة.. الخاصة جدًّا.

ثلاثة أيامٍ قضيتُها في التخطيط والمخمخة حتى أهدتني قريحتي سيناريو متكاملًا لسحق ثلاثة غربان بنفس الحجر، فحددتُ لحظة الانطلاق بدقةٍ وتممتُ على أدواتي وجلستُ بجوار الساعة أدفع عقرب الدقائق بيدي حتى جاءت اللحظة المنتظرة و.....

بالقربِ من منزل طليقتي ألطاف وقفتُ بعد أن أخفيتُ ملامحي ورأيتها عندما خرجتْ بصحبة بيومي في هذا الميعاد الذي اخترتُه أنا لأنه ميعاد زيارتها لوالدها المريض في المستشفى.

في هذه اللحظة تأكدتُ أن حسيبة وحدها بالمنزل فابتسمتُ ابتسامةً شريرةً وأنا أستعد لتنفيذ خطتي فظهر فجأة الحاج ميمي الذي جاء لزيارة أخته في الغالب فازدادتْ ابتسامتي الشريرة وقلتُ لنفسي "جيت لقضاك يا أبو ليه".

انتظرتُ حتى دخل ميمي المصيدة وبعد دقائق دخلتُ وبيدي الكريمة تركتُ لهما هديةً قيمةً أمام باب الشقة وغادرتُ في لمح البصر.

في اليوم التالي اعتلى هذا الخبر السعيد صدر الصفحة الأولى في جريدة أخبار الحوادث التي أعمل بها، فقرأته بتلذذٍ..

احتضنتُ الأوراق ونزلتُ إلى المقهى القريب فجاء العامل وببشاشةٍ قال:

- البيه يؤمر بإيه؟

- عاوز أغني.. أرقص.. أحضن الدنيا كلها.

- نعم يا خويا!

- هات لي واحد حلبة حصى وشيشة.. النهاردة يوم النصر.

انصرف الرجل بعدما قال:

- الثورة دي جننت الناس والله.

ناديت عليه وقلتُ له:

- عارف يا سطى.. أنا مش عارف ليه استنيت لما هي تنزل.. جايز عشان لسه بحبها!

هزَّ الرجل رأسه وتأكد أنني لا محالة مصابٌ بلوثةٍ عقليةٍ وتركني بعدما ضرب كفًّا بكفٍّ فتجاهلته وأعدتُ قراءة الخبر عشرات المرات..

"تفجير قنبلة يدوية الصنع في منزل تملكه سيدة خمسينية على يد مجهول"، اقرأ تفاصيل الخبر في الصفحة الخامسة.

"انفجرت قنبلة يدوية الصنع في منزلٍ تملكه سيدة تُدعي حسيبة النمر بحي العاشر من رمضان مما أدى إلى إصابة (ميمي النمر 55 سنة) بحروقٍ بالغةٍ من الدرجة الثالثة، وإصابة (حسيبة النمر 48 سنة) بحروقٍ بالغةٍ وتشوهاتٍ متفرقةٍ في الوجه والجسد"

تمَّت بحمدِ الله

11/ 1/ 2017

مُصطفى حِنيجِل

.....

<u>شكرٌ خاصٌّ إلى:</u>

(أمي)، وإخوتي (نجاة وأحمد)، كلماتُ الشكر لا تكفي.

***

لأسباب كتير جدًّا.. شكر خاص إلى صانع البهجة (عمر طاهر).

***

<u>أسرة تويا الجميلة</u> / هالة البشبيشي؛ شريف الليثي..

<u>شكرًا لأصدقائي أهل الإبداع..</u>

إنجي مطاوع؛ رنا السعيد؛ أحمد القرملاوي؛ محمد عصمت؛ الشيماء صلاح الدين؛ محمد عبد الفتاح.

<u>والأحباء..</u>

لمياء علي؛ رضوى أبو زيد؛ نهلة مختار؛ نشوى مطاوع؛ عمرو سليم (نيكولاس)؛

رشا ضاهر؛ إسراء يحيى؛ رحمة ماهر؛ آحمد علي؛ داليا فهمي؛ شيماء علي؛ هايدي محمود؛ رند طارق، نادية نعمان.

مع حفظ الألقاب للجميع.. مستجير بيحبكم جدًّا نفر نفر دار دار زنجة زنجة!

نبذة ضهر الغِلاف

تحققت دعوةُ أمي ورزقها الله ملاكًا رقيقًا، فأقبلتُ على الدنيا بصراخٍ تسبب في تدمير الجهازِ العصبي لكلّ الموجودين، ويُقال إن السَّماء في هذا اليوم بدتْ صلعاءَ خاويةً حيث لم تظهر الشمسُ كعادةِ كلّ صباح، وكأن حدثًا جللًا قد حدث؛ واكتمل بهاءُ اليومِ بإصابةِ الطبيبِ بأزمةٍ قلبيةٍ بعد انزلاقي بدقائقَ من رحم أمي واضعًا قدمًا على الأخرى بكل تأففٍ!

نعم أيها السَّادة.. ألا تُدركون قيمة وجود مُستجير معاطي الحِدق بينكم؟!

إذن.. إليكم بعضًا مِن سِيرتي المُستجيرية....